العدد السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

السنة الثانية

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٥٥

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

الاشتراكات

صـ	
١٠٠	عن سنة كاملة
٦٠	عن نصف سنة
للطلاب وجنود الجيش	
٨٠	عن سنة كاملة
٤٠	عن نصف سنة
٢٥	عن ثلاثة أعداد

يضاف اليها أجرة البريد خارج القطر

رمضان سنة ١٣٧٢ — مايو سنة ١٩٥٣



هذا القرآن

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي

المرشد العام للاخوان المسلمين

حكم الإسلام والأقليات :

قال القائلون : كيف تطبقون قواعد الإسلام فى بلد فيه مسيحيون ويهود ، وفيه أجانب ؟ ولم ينتظروا جوابا ، وحكموا بأن فى ذلك إحراجا للأقليات ، وإحراجا للأجانب . ومن ثم فقد حكموا بأن الإسلام غير صالح لأن يحكم الناس فى هذا العصر . ولم يعلم هؤلاء أن الإسلام لم يترك للأقليات قضية تتردد على مر السنين وبين أطواء القرون ، ولم يجعل لهم شيئاً يشكون منه ، بل حسم الأمر وفض القضية وانتهت من منذ أربعة عشر قرنا ، وصارت فى حيز النسيان . . والذين يثيرون هذه القضية لا يجدون لها موضوعاً ، وإنما يثيرونها كوهم من الأوهام .

ذلك أن القرآن أباح حرية العقيدة وحماها « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ، « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ، « قال ياقوم أرأيتم إن

بسم الله الرحمن الرحيم

العدد السابع

السنة الثانية

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٥٥

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

الاشتراكات
مـ
١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
للطلاب وجنود الجيش
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف اليها أجرة
البريد خارج القطر

رمضان سنة ١٣٧٢ مايو سنة ١٩٥٣

هذا القرآن

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي
المرشد العام للاخوان المسلمين

حكم الإسلام والأقليات :

قال القائلون : كيف تطبقون قواعد الإسلام فى بلد فيه مسيحيون ويهود ، وفيه أجانب ؟ ولم ينتظروا جوابا ، وحكموا بأن فى ذلك إحراجا للأقليات ، وإحراجا للأجانب . ومن ثم فقد حكموا بأن الإسلام غير صالح لأن يحكم الناس فى هذا العصر . ولم يعلم هؤلاء أن الإسلام لم يترك للأقليات قضية تتردد على مر السنين وبين أطواء القرون ، ولم يجعل لهم شيئاً يشكون منه ، بل حسم الأمر وفض القضية وانتهت من منذ أربعة عشر قرنا ، وصارت فى حيز النسيان . . والذين يثيرون هذه القضية لا يجدون لها موضوعاً ، وإنما يثيرونها كوهم من الأوهام .

ذلك أن القرآن أباح حرية العقيدة وحماها « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ، « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ، « قال ياقوم أرأيتم إن

كنت على بينة من ربى . وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » .

وما حاجة الله إلى أن نكره أحداً على اعتناق الإسلام إذا كان الله ينظر إلى قلوب الناس لا إلى صورهم ولا إلى مايقولون دون مايعتقدون .

ولم يحصل أن أكره أحد من غير المسلمين على اتخاذ الإسلام ديناً فى جميع عصور التاريخ الإسلامى .

وأباح حرية العبادة ؛ فلغير المسلمين أن يقيموا معابدهم كيفما شاءوا وأن يعبدوا الله فيها من غير حرج عليهم فى ذلك « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » وكثيراً ماحصل أن بنت الدولة الإسلامية الكنائس للمسيحيين يؤدون فيها شعائر دينهم . ولا يزال المسيحيون واليهود يتمتعون بهذه الحرية إلى اليوم ، لايستطيع مسلم أن يحرمهم منها . لأنه إن فعل يكون عاصيا لله سبحانه وتعالى غير مطيع لأمره ، والمسلمون إذ يبيحون حرية العقيدة وحرية العبادة لا يتفضلون على أحد بذلك وإنما يفعلونه عبادة لله تعالى وقربى له دون أن يملكوا له منعا .

وفى أحوالهم الشخصية فإن الأقليات تطبق قواعد دينهم ، تحكم فى ذلك محاكمهم — فالزواج — والطلاق — والنفقة — والعدة — والرضاعة — والنسب والميراث — والوصية — والهبة : كل ذلك وغيره مما يدخل فى هذا الباب قد أمرنا فيه بتركهم وما يدينون — لايتعرض لهم أحد فى ذلك — .

وكل مايصح لنا أن نفعله هو أن نهيء لهم محاكمهم ، ونهيء لهم طرق السير فى قضاياهم إذاهم طلبوا ذلك أما الموضوع فلا شأن لأحد فيه لأنه دين محض ليس علينا أن نقول لهم أخطأتم فيه أو أصبتم .

فإذا جاءوا إلينا طائعين مختارين حكمنا بينهم بما أنزل الله ، وقديما جاءوا إلينا فى قضايا الميراث لأن الإسلام يعطى الذكر مثل حظ الأنثيين — ولو أنه فاتهم أن الإسلام كل غير قابل للتجزئة ، وأنه إذا كان يعطى المرأة نصف حظ الذكر ، فلأنه لايكلفها نفقة على زوجها ولا على نفسها ولا على أولادها ولا على أحد من أقاربها ؛ على حين أن الرجل مكلف بالنفقة عليها ولو كانت غنية ، وعلى أولاده ووالديه وأقاربه إن كانوا فقراء .

وإن فى هذه الحريات من الحق والإنصاف والإسماح ورعاية مشاعر غير المسلمين مالا تجده فى القوانين الوضعية الحديثة ؛ فالله تعالى لا يشرع حين يشرع للمسلمين وحدهم فيظلم النصارى محاباة لهم ، ولا يشرع للنصارى فيظلم المسلمين لحسابهم ، وإنما يشرع لخلقه جميعا وهو أعدل الحاكمين ، وليس فى حاجة إلى ظلم أحد لحساب أحد .

وإن الدول الأجنبية والقوانين الأجنبية لاتعطى أحداً من الناس من الحقوق مثل ما أعطى الإسلام لغير المسلمين ؛ فالمسلم الإنجليزى كاللورد هدلى مثلا . لايستطيع أن يتوارث أبناؤه على ما أنزل الله ، بل طبقاً للقانون الإنجليزى ، ولا أن يتقاضى أمام قاضيه بل أمام قاض غير مسلم ، ولا يكون زواجه وطلاقه وهبته ووصيته إلا طبقا للقانون الإنجليزى ، وكذلك القانون الفرنسوى وسائر القوانين الأجنبية حتى القانون التركى لم يجعل للمسلمين ولا لغير المسلمين حقاً فى أن تستريح نفوسهم بالعمل بقواعد دينهم .

وأما من حيث المعاملات فإن المسيحية ليس فيها نصوص تنظمها ، أما الإسلام فقد تعرض لها وقرر أحكامها ، فالبيع ــ والشراء ــ والإجارة ــ والقرض ــ والعارية ــ والشركة : كل ذلك مما تعرض له الإسلام وتكلم فيه الفقهاء من أمور الدنيا قد جعل شرعا للمسلمين لايختلف عن الشرائع المعمول بها فى الوقت الحاضر فى سائر البلاد غير الإسلامية إلا فى أحوال قليلة . ويهمنا أن يلزم المسلمون دينهم ، وأن يأخذوا به على أنه أمر من الله تعالى واجب الطاعة والاحترام ، وأن يروضوا أنفسهم على تنفيذه بدافع من ضمائرهم واعتقادهم لا مراعاة لنصوصه فقط ، تلك النصوص التى يشعر المرء فيها بأنه يستطيع الخروج عليها وعدم الطاعة لها متى قدر على ذلك مادام يعتقد أنها من صنع إنسان مثله ليس له حق الاستعلاء عليه والتشريع له لجواز خطئه وتحيزه وتأثره بالأهواء والأباطيل .

ولما كانت المسيحية ليس فيها نصوص من هذا القبيل فيستوى عند المسيحيين أن يكون قانون المعاملات بحيث يعتقده المسلمون ديناً ويحترمون تنفيذه فى حق أنفسهم وحق غيرهم ،و أن يكون قانونا بالنسبة لغير المسلمين .

وقد بقى قانون المعاملات معمولا به فى مصر مدة ثلاثة عشر قرنا ، فأصبح بذلك قانونا قوميا للمسلمين والمسيحيين على السواء .

قصص القرآن

نوح عليه السلام

عرض وتحليل للأستاذ البهى الخولى

(٢)

عرضنا فى المقالة السابقة قصة نوح عليه السلام كما قصها القرآن الكريم . . فهل قص الله سبحانه فيها كل ما كان بينه وبين قومه من جدل ، وحوار ، وتعليم ، وخصام فى مدى ألف سنة إلا خمسين عاما ؟

إذا نظرنا إلى نهج التاريخ الذى يعنى بسرد الحوادث ، وتقرير الأنباء ، وذكر أرقام السنين ودورات الزمن ، قلنا : لا . . .

وإذا نظرنا إلى نهج الحكمة والعظة الذى يعنى بفطرة الله الصادقة فى كل شىء ، وسنته الأصيلة التى يدار عليها شأن الفرد والمجتمع ؛ ويرجع إليها فى تقدير قيم الأعمال والأوضاع والاتجاهات . . . إذا نظرنا إلى ذلك النهج ألفينا القصة الكريمة قد ذكرت لنا كل شىء عما كان بين نوح عليه السلام وقومه .

ذلك أنها عرضت لما طرأ على العقيدة الصالحة من فساد ؛ وبينت ظواهره وأعراضه؛ ونوهت بالآثار الكريمة الروحية ، والاجتماعية ، والاقتصادية التى تترتب على العودة إلى العقيدة الفطرية السليمة . .

وعرضت لقادة البيئة ورؤساء القوم ، وبينت فساد منطقهم ونظرهم إلى قيم الحياة . . . وأثرهم فى تضليل العامة ، واستدراجهم إلى جانبهم ، وتزييف الحقائق عليهم . . . ونهجهم فى اللجوء إلى الوعيد عند غلبة البرهان ونصوع الحجة ، وتوقع الخوف على ما فى أيديهم من رياسة وسلطان ومنفعة . . .

وأبانت حقيقة العمل الصالح والعمل الفاسد ؛ والمنهج الذى يقوم به كل منهما ؛ والعاقبة المحتومة لكل نهج .

أى أنها عرضت للمقومات الأصيلة لـكل مجتمع :

العقيدة . .

والقيادة . .

والعمل . .

فإذا فسد كل أولئك فهو مجتمع فاسد ، وإن بدا للعين شامخ البنيان ، عزيز السلطان ، واسع الرقعة . وإذا صلح كل أولئك فهو المجتمع المثالى الصالح لذى يرث العاقبة لا محالة ، ويديل الله له من عدوه ولا بد .

ولقد كنا نقول فى المقال السابق إننا نعنى بالمجتمع ذلك القبيل من الناس « الذى استقر فى بقعة من الأرض كبيرة أو صغيرة . . . وربطت بينهم أواصر النسب القريبة أو البعيدة ، وواشجت بينهم المصالح المختلفة ووحدة الهدف العام . الخ » كنا نقول ذلك ، وكنا نعنى به المقومات الطبيعية لـكل مجتمع صالحاً كان أو غير صالح ؛ أى كنا نعنى المقومات التى لا تتعلق بصلاحه أو فساده . . أما تلك الثلاثة التى نحن بصددها : العقيدة . . . والقيادة . . والعمل ؛ فهى المناط الحق للصلاح إذا صلحت ؛ وهى المناط الحتم للبوار والفساد إذا فسدت . . وهى التى عقد عليها السياق فى قصة نوح عليه السلام ، ولذا قلنا فى المقال السابق : أن قصة نوح هى قصة الصلاح والفساد لكل مجتمع . . وسنحاول إن شاء الله أن نعرض ما جاء فى القصة الـكريمة عند كل أصل من هذه الأصول الثلاثة ، قدر استطاعتنا ؛ وبه سبحانه التوفيق ، ومنه وحده نستمد العون . .

أولا : العقيدة

كان هؤلاء القوم يعبدون آلهة لهم من دون الله ؛ ورد عنها فى القرآن الـكريم قوله سبحانه :

« وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن وداً ، ولا سواعا ، ولا يغوث ويعوق ونسراً [1] » . وهو قول يحتمل أن تـكون الآلهة أكثر مما ذكرته الآية الـكريمة ، وأن تخصيص تلك الخمسة بذكر أسمائها إنما جاء على ألسنتهم لما لها عندهم من جلالة الشأن وعلو المقام ؛ قال الإمام الزمخشرى فى تفسيره : « كأن هذه المسميات كانت أكبر أصنامهم ، وأعظمها عندهم ، فخصوها بعد قولهم لا تذرن آلهتكم » .

(١) نوح : ٢٣

قدم عبادة الأوثان :

وعبادة التماثيل ظاهرة دينية قديمة ، لازمت الناس فى كثير من البيئات على تعاقب الدهور ، ولا يزال لها إلى اليوم طقوس وشعائر تؤدى فى بعض جهات الأرض .

ولا يستطيع باحث أن يحدد لنا على سبيل اليقين متى وأين بدأت عبادة التماثيل . ولكنا نستطيع أن نقول : إنها بدأت فى عمران مستقر ، لا فى بادية قلقة كثيرة الحل والترحال . . . عمران مستقر ذى حضارة يزدهر فيها فن النحت والتصوير ، ويغلب على حياة أهلها الخضوع لمقتضيات فطرة التدين .

وازدهار فنى النحت والتصوير ، لا تبلغه الإنسانية إلا بعد أن تكون قد قطعت من عمرها أزمانا متطاولة ، ومرت فى مدارج تجاربها بمراحل بطيئة . . . متعاقبة وهذا ما يدعونا إلى القول بأن عبادة التماثيل نشأت بعد آدم بدهور طويلة لا يعلمها إلا الله ، وأن بين آدم ونوح عليهما السلام من الأزمنة البعيدة أكثر مما جاء فى التوراة ، ونقله عنها بعض علماء المسلمين . بما لم يتأيد بنص من كتاب الله سبحانه ، أو سنة صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . وإذا كان قوم نوح يقولون له فى التوحيد الذى يدعوهم إليه : « ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » فمعناه أنهم لم يبتدعوا تلك الوثنية ابتداعا بل ورثوها عن آبائهم الأولين منذ أجيـــال موغلة فى القدم . . . أجيال تتسع بها الشقة الزمنية بين آدم ونوح إلى أكثر مما تصوره كاتب التوراة عن ظن ضيق وتخمين ساذج . . . فإنه قدر ما بين خلق آدم وولادة نوح بألف سنة وخمسين عاما . . . وهى مدة لا تكفى لقيام حضارة مستقرة يزدهر فيها فن النحت ليؤدى بفطرة التدين بعض ما يَقَرُّ به أصحابها من المطالب . . . فكيف والقوم قد عرفوا التماثيل وعبدوها قبل ولادة نوح بأجيال كثيرة ؟

بين التوحيد والوثنية :

ولقد هبط الإنسان هذه الأرض ولا تجارب له . . . فذهنه خال تمام الخلو من كل تجربة تعينه على عمارتها ، وكان عليه أن يبدأ طريق تجاربه الطويل من أول نقطة له ... ولكنه مع ذلك هبط وهو يحمل ـ فيما يحمل ـ من المواهب سراً قدسياً شديد الحساسية والوهج . . . سراً موصول الأسباب بما وراء الكائنات المنظورة من غيب رهيب جليل ، يذهب بمشاعر الإنسان وأشواقه وقواه الخفية بالباطنة إلى تلمس ما فى هذا

الغيب من نور وسعادة وخير وطمأنينة . . . وذلك هو ما أسميناه فطرة التدين . . ! فكان ينظر إلى الأشياء التي تحيط به في أفق هذه الأرض بفطرته تلك المشرقة ، لا بمعدته ومنطق منافعه . .

لم يكن الإنسان قد جرب لذائذ هذه الأرض عند هبوطه إليها ، ولم تكن أشياؤها قد ارتبطت بمواقع شهواته ومرضاته ، فكان نظره إليها وحكمه عليها خالياً من إيحاءات الهوى ورغبات الغرائز . . . وإنا لنستطيع أن نتمثله قائماً يحدق فيما حوله من خلال فطرته الساطعة . . . وهي فطرة ذات منطق يربط الأسباب بالمسببات . . . والنتائج بالمقدمات . . . والأشياء بصانعها . . والمخلوقات بخالقها ، فتبدو له الكائنات في نور تلك الفطرة كأنها لوحات معرض جليل عظيم ، تحدثه ببيانها الصامت ، ولسان حالها البليغ عن قدرة خالقها المبدع جل شأنه وعن حكمته ، وعن علمه . . . الخ . . . ولم يكن قلبه النقي قد شابه لوثُ المادة وتفكير المنفعة ؛ فكان حديث اللوحات ينفذ فيه إلى الشغاف ، ويهزه من الأعماق ، ويثير فيه كل نابضة وخالجة . منفعلةً بشعور الدهشة والإعجاب والإجلال لشأن الخالق المبدع العظيم جلت عظمته .

ومع أن هذا النظر الفطري الصادق كفيل أن يهدي الإنسان إلى توحيد الخالق سبحانه ، ويُقر في قلبه عقيدته المكينة ، فإن آدم عليه السلام جاء مزوداً بأسرار تلك العقيدة وتعاليمها ، مأموراً أن يقيم حياته في الأرض على مقتضاها « فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وهذا الذي نقرره هو أصدق المذاهب الاجتماعية ، وأليقها بالفطرة ، وأوفقها لما جاءت به نصوص الإسلام الحنيف . . . ولا عبرة بما يذهب إليه بعض علماء الاجتماع الديني من أن الدين في جوهرة ظاهرة اجتماعية ينشئها المجتمع في نفوس أفراده بحسب درجته من الرقي ، فإذا كان المجتمع ساذجا في تفكيره ، بدائيا في أسلوب حياته ، جاء الدين صورة أو خليطاً من أوهام تلك السذاجة ، ولا مانع حينئذ أن يكون النبات أو الحيوان إلهاً معبوداً إذا توهم عقل القبيلة أو عقل الجماعة أنها انحدرت من سلالة هذا النبات أو ذلك الحيوان !!!

فإذا كان المجتمع قد جاوز السذاجة إلى طور الاجتماع الذي تكثر فيه احتياجات الأفراد ، وتتشابك فيه مصالحهم ، فهو مجتمع أرقى ، يهب لأفراده عقيده أرقى ! . . . فإذا استبحر العمران ، وتألفت المجتمع امبراطوريات ، ترقى عقل الجماعة وظهر

التوحيد باعتباره احدى ثمار هذا الرقى . . . فالدين عندهم على هذا ظاهرة اجتماعية ، يصنعها المجتمع لأفراده . . أو هو شىء ينبع ابتداء من عقل المجتمع ، ولادخل فيه لعقول الأفراد أو ينابيع أفئدتهم .

وكأن هؤلاء يفترضون فى الإنسان أنه كائن معطل من المواهب العليا ، والمشاعر الروحية الرفيعة . !

يعطلونه من تفكيره الذاتى ، ومنطقة الفطرى الذى يربط — فى بساطة — السبب بالمسبب ، والصنعة بالصانع ، والخلق بالخالق . . .

ويعطلونه من الملكة الحساسة التى تتلقى إلهام الكائنات ، وإيحاءاتها المتحدثة عن الله ، فتحيلها مشاعر قدسية ، تطهر القلب ، وتزكى النفس ، وترفع المرء إلى السماء ، وتصله بالله سبحانه . .

فإذا عطل الإنسان من منطقه السليم ، وفيض وجدانه الكريم ، فماذا يكون شأنه إلا أن يكون آلة مصمتة ، أو دابة مغلقة لاامتياز لها ؟ .. ومثل ذلك الإنسان لايعرفه واقع الحياة لا فى قديمها ولا فى حديثها ؛ ولا يعرفه الإسلام الذى نبه إلى ما يمتاز به البشر منذ اللحظة الأولى من جليل المواهب ، وتنوع الملكات والمدارك بقوله سبحانه : « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »

نعم إن الدين قد تدخله أو يمتزج به بعض إلقاءات فاسدة من عادات المجتمع أو أوهامه فلا يلبث الناس أن يظنوها عناصر من عناصره الأصيلة ، فتفسد العقيدة ، ويختل ميزان الأعمال وتقدير القيم . . قد يحصل هذا أو نحوه وهو قريب مما يحدثنا القرآن الكريم عنه فى عبادة قوم نوح ، ولكن هناك فرقا أصيلا شاسعاً بين أن يكون الدين فطرة أصيلة فى المرء تختلط أحيانا ببعض أوهام البيئة ، وبين أن يكون شيئاً لاعلاقة له بالمرء إلا أن يصنعه له عقل المجتمع ويوحيه إليه على حسب ترقى هذا العقل . !

***

فالدين فطرة فى الإنسان أولا . . . والتوحيد . . . توحيد الخالق سبحانه هو نظام هذه الفطرة وناموسها الوحيد الذى لا تحمل سواه . . . وهو القول الذى يذهب إليه ثقات علم الاجتماع الدينى : وقد قلنا أن هذه الفطرة مارست مهمتها منذ أن وجد الإنسان نفسه فى هذه الأرض ، وقام يحدق فما حوله بنوره الساطع الباهر . . فكان كل شىء يقع عليه بصره يذكره بالخالق الصانع ، إذ لا يرى على صفحته سوى سر من أسرار صفاته جل شأنه .

كانت صحيفة تجاربه العملية والاجتماعية خالية تمام الخلو من كل أثر سابق .. وكان حسه الذى يذوق به ما فى هذه الأرض يجهل كل الجهل أن يميز بين لذائذها المتنوعة ، وأن يفرق بين صنوف أو طعوم طيباتها المختلفة . . . وكان منطقه الذهنى القائم على إدراك أن صلة الأشياء بعضها ببعض عن طريق ما ترى العين وتسمع الأذن . . كان هذا المنطق غفلا أملس لم يمارس مهمة فى الحياة بعد . . ولم يكن فيه من موهبة تعمل عملها ، وتؤدى رسالتها إلا تلك الموهبة الفطرية التى تتألق شمسها الباهرة بين جنبيه ، فلا ترى فى الكائنات إلا الله سبحانه . . أى أن وعيه كله كان مركزا فى فطرته المتدينة الحساسة . .

وبدأت بشرية الإنسان تكدح كدحها وتباشر اختصاصها فى هذه الأرض . . .

بدأ يفكر : كيف يحفظ نفسه من الجوع . . والظمأ . . والحر . . والبرد . . وسائر غوائل الطبيعة

وبدأت المشاهدت تلفته إلى ألوان لذائذها . . وطعومها . . ومنافعها . .

وبدأ يقارن بين قيم الأشياء : أيها أفضل وأعود عليه بالمنفعة واللذة ؟

وبدأت غرائزه تنمو . . . وتتشعب . . . واحتياجاته تتنوع وتتفرع . . .

وبدأت تجاربه تكثر ، ودائرة معارفه تزداد ، ومحيط نشاطه الذهنى يستفيض ، فهو دائم النظر فيما حوله : موازنة ، أو استقراء ، أو تحليلا ، أو تعليلا ، . . ليدرك سر الانتفاع بالأشياء ، ويوافى احتياجاته منها بما يريد . .

أى بدأ وعيه الذى كان مركزا فى فطرة التدين ينسحب بالتدريج إلى الاتصال بما حوله

وبدأت الكائنات التى كانت لا تحدثه إلا عن الله تحدثه أيضا عن طعومها ولذائذها ومتعها

وبدأ القلب الذى كان لا يطرب إلا بما تلقيه إليه الكائنات من تسبيح الله جل شأنه ؛ يطرب لما يذوق من طعوم أو يصيب من لذة .

وبدأ الذكر الخالص لله يشوبه ذكر المنافع الأرضية

وبدأ نور الفطرة يزاحمه ظل الشهوات والهوى

وكان ذلك هو سبيل الناس إلى الوثنية فى جميع صورها إلى اليوم . . . وأقدم مجتمع حدثنا القرآن الكريم عن وثنيته هو مجتمع قوم نوح . . . وموعدنا المقال القادم فى كيفية نشوء هذه الوثنية وآثارها الاجتماعية والنفسية والله الموفق .

من علوم السنة

فى البيوع والكسب والمعاش وما يتعلق بالتجارة

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا

(٩)

باب النهى عن بيوع الغرر(١)

١ — عن ابن عُمَرَ رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن بَيْعِ حَبَلِ الْحَبَلَةِ(٢) .

٢ — وعنه أيضاً قال : كان أهل الجاهلية يبيعون لحم الجزور(٣) بحَبَلِ حَبَلَةٍ ؛ وحَبَل حبلة تنتج الناقة ما فى بطنها ثم تحمل التى تنتجه(٤) ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك .

٣ — وعنه أيضاً قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن بيع الغَرَر ، وقال إن أهل الجاهلية كانوا يبتاعون ذلك البيع : يبتاع الرجل بالشارف(٥) حبل الحبلة ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك .

٤ — عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن بيع الغرر ، وفَسَّر يحيى(٦) بيع الغرر قال : إن من الغرر ضربة

---

(١) الغرر : ما كان له ظاهر يغر المشترى وباطن مجهول .
(٢) الحبلة : جمع حابل والهاء فيه للمبالغة .
(٣) الجزور : البعير ذكراً كان أو أنثى .
(٤) أى تعيش المولودة حتى تكبر ثم تحمل .
(٥) الشارف : الناقة المسنة .
(٦) أحد رجال السند فى هذا الحديث .

الغائص[١] ، وبيع الغرر العبد الآبق[٢] ، وبيع الغرر البعير الشارد ، وبيع الغرر ما فى بطون الأنعام ، و بيع الغرر تراب المعادن ، وبيع الغرر ما فى ضروع الأنعام إلا بكيل .

٥ — عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن شراء مافى بطون الأنعام حتى تضع ، وعن بيع ما فى ضروعها إلا بكيل ، وعن شراء العبد وهو آبق ، وعن شراء المغانم حتى تقسم ، وعن شراء الصدقات حتى تقبض ، وعن ضربة الغائص .

٦ — عن على رضى الله عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن بَيْعِ المضطرين ، وعن بيع الغرر ، وعن بيع الثمرة قبل أن تُدْرِك[٣] .

٧ — عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا تشتروا السمك فى الماء فإنه غرر[٤] .

٨ — عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن بيع الحصى[٥] ، وبيع الغرر .

---

(١) أن يبيع الغائص فى الماء ماسيخرجه قبل أن يعرف .
(٢) الآبق : الهارب والبعير الشارد كالعبد الآبق فى الحكم والمعنى .
(٣) تدرك : أى يبدو صلاحها ، وتؤمن من العاهة ؛ وذلك يكون بانعقاد الحب واصفرار التمر أو احمراره .
(٤) أى أن بيع السمك فى الماء باطل لعدم العلم به والقدرة على تسليمه .
(٥) أن يقول البائع للمشترى بعتك من هذه الأثواب ما وقعت عليه هذه الحصاة .

الصَّوْمُ

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

قال الله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات ، فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيراً فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ، شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ولتكبروا على ما هداكم ولعلكم تشكرون » .

١ — هذه الآيات الكريمة بينت فرضية الصوم ، وعينت زمانه ؛ وأشارت إلى أنه ليس زمانا طويلا يثقل على النفوس بطوله ، ولا بطريقة ترهق الجسم ، ولكنه يسر لا عسر فيه ، وفيه شكر للنعمة ، وهو يؤدى إلى التقوى ، وهو يهذب النفس من غير إرهاق ، ويغذى الوجدان من غير هدم للبنيان .

وفى الجملة هذه الآيات الكريمة بينت المقصد من الصوم ، وبينت وقته ، ولماذا اختير ذلك الوقت دون سواه ؛ ثم بينت الأعذار المسوغة للافطار ، وهكذا ، فهى كما يقول المناطقة جامعة مانعة ، بينت الأحكام والغايات منها فى إيجاز بليغ هو سر الإعجاز ، وإحكام دقيق فية روعة البيان .

٢ — لقد قرر الله سبحانه أن الصوم كتب فريضة محكمة فى الإسلام كما كتب على الناس من قبل ، فرضته عليهم الشرائع السماوية ، ففى اليهودية صوم ، ولعله فى الأصل كان كما هو فى شريعة الإسلام ، ولا تزال بقية منه عند اليهود اليوم ، وفى النصرانية صوم كما فى اليهودية ، ولا تزال أثارة منه اليوم .

ولقد ذكر التاريخ فى الغابر ، كما يرى الناس فى الحاضر أن الديانات التى لا يعرف أصلها السماوى فيها صوم يختلف فى العنف والشدة ، ويقصد به عند الكثيرين من

أهل هـذه الديانات تعذيب الجسم لتطهير الروح حاسبين أنه كلما ضعف الغلاف الجسمي تطهَّر القسم المعنوي في الإنسان ، وهو الروح فهو حقيقة الإنسانية والجسم غلافها ، وكلما رق الغلاف تـكشفت الحقيقة وتطهرت ؛ وقد كان ذلك عند الهنود وما زال ، وأخبارهم تجيء إلينا تترى .

وقد كان عند المصريين صوم وقد أخذه عنهم اليونان ثم الرومان .

ولعل الصوم عند أهل هذه الديانات البائدة والباقية كان في أصله يرجع إلى شرع سماوي ، ثم تغيرت أشكاله وأخذ هذه الألوان من التعذيب قوة وضعفاً ، وليس لأحد أن ينفي بعث الرسل إلى هذه الأقوام في القديم لأن من الرسل من لم يذكر الله سبحانه وتعالى أخبارهم ، كما قال تعالى : « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » وقد قال تعالى : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » .

٣ — وإن الصوم قد شرع في الإسـلام لتهذيب الروح من غير إرهاق للجسم كما قلنا ، ولتقوية النفس على الأهواء من غير تعذيب للجوارح ، وقد بين سبحانه غاية الصوم فقال بعد فرضية الصيام : « لعلـكم تتقون » وقال بعـد فرضيته وبيان رخص الإفطار : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، . . . ولعلـكم تشكرون » .

فغاية الصوم وثمرته تربية التقوى في نفس المؤمن ، وبعث الشكر لربه الذي أنعم عليه بكل شيء .

والصوم يربي في النفس التقوى ؛ وذلك لأنه يتجه بالنفس إلى أمور ثلاثة كلها يربي فيها التقوى .

أول هـذه الأمور : أن الصوم تقوية للروح ؛ ذلك بأن الإنسان فيه عنصران : عنصر روحي ملـكي يشترك فيه مع الملائـكة ؛ والعنصر الثاني عنصر جسمي حيواني يشترك فيه مع الحيوان ؛ فحاجات الجسم من مأكل ومشرب ، ولذات هي من الطبيعة الحيوانية في الحياة الإنسانية ، والتهذيب والإدراك والسمو والرفعة إلى المعنويات ، والعلو إلى المناهج الروحية كل هذا من الطبيعة الروحية ، ولا شك أن فطم النفس عن شهوات الجسم أمداً يتناول النهار كله فيه سيطرة للروح على الجسم ؛ وتغليب للعنصر الملائـكي على العنصر الحيواني ، وكلما كان ذلك بقدر معتـدل يستطيعه الناس جميعاً في عامة أحوالهم وشئونهم كان التهذيب أعم ، وتربية النزعة الملـكية شاملا لأكبر عدد من الناس ؛ ولذلك كان الصوم في الإسلام رفيقاً سهلا ليعم نفعه كل الناس ، وتـكون أسباب التقوى في طاقة كل الناس .

وثانى الأمور التى تؤدى إلى التقوى فى الصوم : أن الصوم عبادة مستمرة ، تستمر كما قلنا آناء النهار فالعبد يستمر من طلوع الفجر إلى غروب الشمس فى عبادة بذكر الله سبحانه وتعالى ، ويستشعر عظمته ويحس أنه فى رحمة الله وطاعته فيكون ذاكراً لله ذلك الجزء المديد من الحياة اليومية ، وبالاستمرار على ذلك شهراً كاملا محساً بأنه فى الطاعة لرب العالمين ، كلما مسه الجوع أحس بعبادته ، وكلما أظمأه العطش ذكر ربه ، تربت التقوى فى قلبه بذكر الله دائما . وتذكر الله هو لب العبادة وأساس الطاعة ، وهو الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر . ولذا قال تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » -- وما كانت المعاصى إلا فى غفلة عن ذكر الله ، وما يعصى العاصى إذ ينحرف عن الطاعة ، إلا وهو غافل عن ذكر الله .

ومن أجل أن الصائم فى عبادة مستمرة طول اليوم نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الرفث والفسوق فى القول ، واعتبر ذلك فى يوم الصوم أشد من سائر الأيام ؛ لأنه يفسد العبادة ، كما يفسد الكلام الصلاة ، وقد قال عليه السلام : « إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق » وقد روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل (أى السفه) فليس لله حاجة فى أن يدع شرابه وطعامه » .

وثالث الأمور : أن الصوم فيه تقوية للارادة الإنسانية ، وتغليب للعقل على الشهوة ، فإن الأهواء هى التى تردى الإنسان وتفسد قلبه ، وإن شهوات الجسم وملذاته هى التى تدفعه نحو المعاصى عندما تنحرف وتشتد وتقوى ، فإذا تحكم فيها ، فقد سيطر عقله على هواه ، وإرادته على شهوته .

والصوم يقوى الإرادة ويفطم الإنسان عن أهوائه ؛ لأنه يستمر يوما مستدبراً شهوات الجسم غير ملتفت إليها فتقوى إرادته ، وتشتد عزمته ، ويكون مالكا لزمام نفسه ؛ فتكون التقوى والعمل على الطاعة من غير معوق من معوقات الشهوة والهوى .

والصوم فيه عزاء نفسى للفقير لأنه يرى أن المال الذى يمكّن الغنى من إشباع شهوات الجسم وملذاته شئ يمكن الاستغناء عنه إذا تغلب المرء على تلك الشهوات أو منع سلطانها والصوم صورة واضحة من ذلك السلطان .

٤ -- والصوم فى الإسلام كما قلنا يكون فى أيام معدودات ذكرها أولا مجملة ، ثم ذكرها ثانيا مبينة ، فذكر أنها شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن .

ولماذا كانت الفرضية فى شهر رمضان ؟

والجواب عن ذلك قد أشار إليه القرآن فقد قال تعالى « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه » فذكر ذلك الشهر المبارك مقرونا بذلك الوصف الذى رفعه ، والشرف الإضافى الذى أضفاه المولى القدير عليه بكون أول نزول القرآن الكريم كان فيه وفيه ليلة القدر التى كان فيها أول الوحى المحمدى ، والقرآن الكريم سجل هذه الشريعة ، وحجة هذا الدين ، ومعجزة الرسول الأمين ، ولذا قال تعالى: « إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر » .

فرمضان فى كل عام هو ذكرى النبوة الأولى والرسالة المحمدية ، قد اختاره المولى القدير لينزل فيه وحى السماء إلى الأرض ؛ ففيه كان أول نزول القرآن ، وقد اختاره سبحانه وتعالى أيضاً ليرتفع فيه الروح الإنسانى من الأرض إلى السماء بالانخلاع من الشهوات الجسمية ، والملاذ البدنية والطبائع الأرضية التى يشترك فيها الإنسان مع سائر الحيوان . ولقد وضح ذلك المعنى فخر الدين الرازى فى تفسيره ، فقد قال : « اعلم أنه تعالى لما خص هذا الشهر بهذه العبادة بين العلة لهذا التخصيص ، وذلك هو أن الله سبحانه خصه بأعظم آيات الربوبية ، وهو أنه أنزل فيه القرآن ، فلا يبعد أيضا تخصيصه بنوع عظيم من آيات العبودية ، وهو الصوم ، ومما يحقق ذلك أن الأنوار الصمدية متجلية أبدا يمتنع عليها الاختفاء والاحتجاب إلا أن العلائق البشرية ، مانعة من ظهورها فى الأرواح البشرية ، والصوم أقوى الأسباب فى إزالة العلائق البشرية ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات ؛ فثبت أن بين الصوم وبين نزول القرآن مناسبة عظيمة ، فلما كان هذا الشهر مختصا بنزول القرآن ، وجب أن يكون مختصا بالصوم »

٥ — وقد كان فى رمضان ذكريات إسلامية أخرى فيها اعتز الإسلام ؛ وصارت كلمته هى العليا ، ففى رمضان كانت غزوة بدر الكبرى التى كانت أول انتصار للحق على الباطل ، وللوحدانية على الشرك وبها أزيلت غواشى الشرك ، وكشفت حجب الطغيان وبها كان للاسلام صولة ، ومن بعدها تكونت الدولة الإسلامية تقمع الشرك ، وترد كيد المشركين ، وتسوس المسلمين ، وتهدى الضالين ،

وفى رمضان كان الفتح المبين ، ففى رمضان فتح الله على المسلمين مكة المكرمة ،

وحرم الله الآمن ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فى جيش الله المظفر وجند الله القوى . وأخذ يحطم الأصنام ، وطهر من رجسها البيت الحرام ؛

تلك هى ذكريات ذلك الشهر المبارك ، وقد كتب على المسلمين أن يحيوها بصوم تتطهر فيها الأنفس ، وتتهذب الأرواح ، وتسمو عن منازل المادة ، وتعلو فى معراج القدسية ، وليدركوا ماضيهم الغابر ويعرفوا به ماهم عليه فى الحاضر ؛ فيعلموا أن الأهواء هى التى أركستهم ، والشهوات هى التى أبعدتهم عن مناط عزهم ، ومفاخر ماضيهم .

٦ — كتب الله سبحانه وتعالى على المسلمين الصوم فى رمضان ، وفرضه عليهم فريضة محكمة ، وأن يكفوا عن كل شهوات البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، ثم يتناولوا من بعد المباحات حتى يروا الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

ويبتدئ الصيام من وقت رؤية هلال رمضان ، كما قال تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ولا يصح أن يعجلوا الصيام بيوم أو يومين إلا أن يصادف ذلك نفلا قد اعتادوا صومه .

وليس الصوم فى الإسلام تعذيبا للجسم ، ولا إرهاقا للنفوس كما قلنا ، ولـكنه تهذيب للنفوس وتقوية لها بالكف عن ملاذ الجسم أمدا غير طويل ! ما دام يستطيع ذلك من غير إجهاد ولا مشقة ، ومن غير إعنات ، ولذلك رخص فى الإفطار فى الأحوال التى يقترن فيها الصوم بمشقة شديدة لا تقوى معها الأجسام على احتمال الصوم من غير إرهاق .

٧ — ولقد رخص الإفطار لثلاث طوائف :

الطائفة الأولى : من كانوا على سفر ، فقد أبيح لمن يكون مسافرا أن يفطر ، وقد ورد النص القرآنى بذلك وقد أفطر النبى صلى الله عليه وسلم فى رمضان عند الفتح ، وذلك بعد أن صام فترة حاكاه من معه فصاموا مثله ، فقيل له صلى الله عليه وسلم: « إن الناس قد شق عليهم الصيام ؛ وإنما ينظرون فيما فعلت ، فدعا بقدح من ماء بعد العصر.

وقد اختلف الفقهاء فى جواز الصيام فى السفر وأفضليته ؛ فقال الظاهرية وبعض الإمامية إن الصيام فى السفر لا يجوز عن الفرض ، بل يكون تطوعا ، وعلى المسافر عدة من أيام أخر ؛ لأن المسافر فى أيام رمضان سقط عنه الفرض فيها ؛ والفرض عليه فى أيام أخر ؛ ولوجود نصوص قد يفيد ظاهرها هذا .

وقال الأكثرون إن المسافر له أن يفطر وأن يصوم ؛ فإن صام فقد أحيا الشهر ؛ وهو مثاب مادام لا إرهاق فى الصوم ؛ وإن أفطر فبرخصة الله أخذ ، وإن الله سبحانه وتعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن يؤتى عزائمه .

وقال بعضهم إن الأفضل أن يصوم إن كان يقدر على الصيام من غير مشقة ، وإنى عند هذا النظر فى أيامنا ؛ فإن السفر الآن يتصور فيه الصوم من غير مشقة ، لتوافر أسباب الراحة للمسافرين ، ولا أرى الإلزام بالصوم حيث لا مشقة فى السفر ، لأن ذلك يكون مصادمة للنص ، ويكون معارضة لرخصة الله التى رخصها ، وما كان لمؤمن ولا مؤمنة أن يقضى فى أمر بما يخالف النص ، وأنى يكون لمتدين أن يبطل رخصة الله لعباده .

الطائفة الثانية : هم المرضى فالمرض رخصة ، والمرض الذى يرخص الإفطار هو المرض الذى يكون معه الصوم بمشقة شديدة فوق المعتاد ؛ أو يثبت أن الصوم يزيد المرض . أو يبطىء الشفاء ؛ ويعلم ذلك بإخبار أهل الخبرة من المسلمين الثقات .

ويلحق بالمرضى من حيث التعرض للخطر الجسمى بالصوم المرضع والحبلى ؛ فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة ؛ وعن الحبلى والمرضع الصوم »

وإن هذه الطائفة والطائفة التى سبقتها عليهم إذا أفطروا أن يصوموا فى أيام أخر بقدر ما أفطروا ؛ وهذا لصريح قوله تعالى : « فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر » وليس عليهم فدية ولا كفارة .

الطائفة الثالثة : هم الذين يشق عليهم الصوم ولا يستطيعونه إلا بأقصى الجهد ؛ ولا أمل لهم فى أيام يستطيعون فيها لمرض مزمن لا يرجى برؤه ، أو لشيخوخة متقدمة لا يرجى معها القدرة ؛ وهؤلاء لهم الإفطار على فدية يؤدونها وهى طعام مسكين ؛ وهذا قوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين »

فإن الإطاقة هى عدم القدرة على الفعل إلا ببذل أقصى الطاقة ، أى أنه لا يفعل الفعل إلا بمشقة شديدة ، وهذا تفسير الراغب الأصفهانى لمعنى الطاقة فقد قال : الطاقة اسم لمقدار ما يمكن للانسان أن يفعله بمشقة ، وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشيء ، فقوله تعالى : « ما لا طاقة لنا به » أى ما يصعب علينا مزاولته وليس معناه لا تحملنا ما لا قدرة لنا به . . . وقد يعبر بالطاقة عن نفى القدرة ، وقوله تعالى :

« وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » ظاهره يقتضى أن المطيق يلزمه فدية أفطر أو لم يفطر لكن أجمعوا أنه لا يلزمه إلا مع شرط آخر .

ولقد صرحت الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين بأن هذا الجزء من الآية الكريمة موضوعه الذين لا يستطيعون الصوم إلا بمشقة شديدة ، ولا رجاء لهم فى قدرة فى أيام مستقبلة ، فقد جاء فى تفسير ابن كثير ما نصه : (عن عكرمة عن ابن عباس نزلت هذه الآية « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » فى الشيخ الكبير الذى لا يطيق الصوم) وإذا كان من فى هذه الحال — وهو أنه لا يستطيع الصوم إلا بمشقة كبيرة — لا يملك ما لا يفدى به ، فإن الله غفور رحيم ؛ لأنه إذا كان قد أسقط فريضة الصوم لعجزه ، فإنه أولى أن يسقط عنه فريضة الصدقة لفقره وعجزه .

٨ — وتبين من هذا أن الذين يشق عليهم الصوم من المرضى والزمنى ، وذوى الهرم ، والحوامل والمراضع ، قسمان قسم يرجى أن يقدر فى المستقبل ، وهذا عليه القضاء فى أيام أخر ، ولا فدية عليه . وقسم لا ترجى له مقدرة فى المستقبل ، وأولئك هم الزمنى وذوو الهرم ، وهؤلاء عليهم الفدية وهى إطعام مسكين عن كل يوم ، وإن لم يكن عندهم مال يفضل عن حاجتهم فالله عفو غفور .

ولكن هناك أحوالا فردية خاصة يكون الشخص فى جهد شديد من غير مرض ولا سفر ، ولا مسوغ للافطار من المسوغات العامة كأن يصوم شخص من غير سحور ثم يصير فى حال جهد يتعذر أو يتعسر من إتمام الصوم . فهل له أن يفطر ؟ أجمع العلماء على أن له أن يفطر ، على أن يقضى فى أيام أخر ، وهذه حال شخصية لا تجمعها قاعدة ، فلا يصح أن يقال إن العمال الذين يقومون بعمل مجهد لهم أن يفطروا ، أو طلبة العلم الذين يؤدون الامتحان لهم أن يفطروا . لا يقال ذلك كقاعدة ولكن يقال من كان فى مشقة شديدة ، ولا قدرة له على الاستمرار فى الصوم ، ويعلم ذلك من نفسه علم اليقين فله أن يفطر . والأمر فى ذلك إلى ضميره ، والله محاسبه على ما يفعل إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فإن غالط نفسه وحسه والناس فالله به عليم ، ويستوى فى هذه الحال العامل فى عمل شاق وغيره فالعبرة بالحال الشخصية التى لا يسيطر عليها إلا الوجدان .

٩ — ويلاحظ أن المشقات هى المشقات الجسمية ، ولم يؤثر عن أحد من الصحابة والتابعين أو الأئمة المجتهدين ما سموه للشقات أو الأعذار الفكرية ، كالذى

يدعى أن الصوم يعوق عن التفكير ، أو يبطىء الفهم ، وعلى ذلك الزعم يسوغ للطلبة الذين يؤدون الامتحان أن يفطروا .

إن الصوم لا يعوق قط عن التفكير ، بل إن المأثور أنه يربى فى القلب صفاء يدفعه إلى التأمل والفكر المستقيم ولذلك كان يتخذه الصوفية ومن ينهج نهجهم لتصفية نفوسهم وإعلاء مداركهم .

وما يظنه بعض الناس من أنهم لا يفكرون تفكيراً مستقيما فى أثناء الصوم فذلك وهم من أوهامهم سرى إليهم من شيوع تلك الفكـر المخطئة أو الخاطئة بينهم ، فشيوعها هو الذى أوجد تلك الحال النفسية فيهم ، فهم الذين أفسدوا تفكيرهم ، ولم يكن الصوم هو السبب فى تعويق فهمهم ، كما شاع بين الناس أن الصوم يضيق معه الخلق ويجعل الصائم سريع الغضب فتلك أيضا من وهم النـاس المسيطر ، فإن الصوم يصفى النفس من أدرانها ومن كان فى هياج مستمر فهو من تسلط الوهم ، والأوهام قد تسيطر فتكون كالحقائق . والعيب حينئذ فى الأشخاص وعدم فهمهم حقيقة الصوم لا من الصوم ؛ إذ هو برىء مما يتوهمون ، وهكذا يضل الناس أنفسهم بأوهام يعيشون تحت ظلها ، فيفسد إدراكهم لمعنى العبادة فتشق عليهم ، أو يكون منهم ما ينافى حقيقتها وينسبون ما فهم إليها ، وهى منها براء .

١٠ — ولقد حدث فى العام الماضى أن نشر فى الصحف كلام ذى مقام رسمى فى الدين يستفاد منه أن من يقوم بعمل عقلى شاق له أن يفطر ، وكان الطلبة فى الامتحان ففهموا منه أنه يسوغ لهم أن يفطروا فجاهر من ليس للدين حرجة فى قلبه بالافطار ومن تحرج لم يفطر ، ومن كان على ثقة من أقوال الرسميين أفطر ، وتفاقم الأمر بين الشباب ، فسارعنا إلى المذياع وألقينا من فوق منبر الإذاعة أن هذه الرخصة ما أنزل الله بها من سلطان ، وأن على طلاب العلم أن يستعينوا بالصوم على حسن الإجابة ، وأن يعلموا أن استقامة الفكر من استقامة القلب والوجدان ، وسلامة التفكير من طهارة الضمير ، وأن العلم نور لا يضىء قلباً غشَّته المعصية ، وليستعينوا بالله ، ولا يطفئوا نور العلم بانتهاك حرمات الله ، وليتيمنوا بأن امتحانهم صادف رمضان فهى هدية الله إليهم فعليهم أن يقبلوها ولا يردوها ، وهو شهر ميمون ؛ فبشروا أيها الطلاب أنفسكم بيمنه وصوموه واعتمدوا على الله ، واعملوا وفوضوا الأمر إليه إنه بصير بالعباد .

١١ — وقبل أن نختم الموضوع ننبه إلى أمور — أولها — من أفطر عامداً متعمداً فعليه عند أبى حنيفة وأصحابه كفارة الصوم الكبرى وهى عتق رقبة ، فإن لم يجد

فصيام ستين يوما ، فإن لم يجد فإطعام ستين مسكيناً ، وقال أحمد والشافعى إن هذه الكفارة خاصة بمن جامع فى رمضان ، وأما من أفطر بغير ذلك فالإثم عليه ويطعم مسكيناً . وفى المذاهب كلها عليه القضاء .

ثانيها — أن من أكل أو شرب ناسياً فعليه أن يتم صومه ، ولا قضاء عليه ، لقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة : « إذا أكل أحدكم أو شرب ناسيا فليتم صومه ، فإنما أطعمه الله وسقاه » ولقوله عليه السلام : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

ثالثها — أن من أخطأ فتناول مفطراً كمن أكل بعد الفجر ظاناً أنه لم يطلع ، وكمن سبق الماء إلى حلقه فدخل إلى جوفه غير عامد ولا قاصد ، فقد قال أبو حنيفة وأصحابه إنه يفطر ؛ لأنه لم يرد نص صريح بإمضاء صومه واعتباره ، فبقى على أصل القاعدة الشرعية ، وقال أحمد والشافعى لا يفطر ويتم صومه ولا قضاء ، لأن الخطأ والنسيان قد رفعا عن هذه الأمة ، ولا مؤاخذة إلا بما تعمدته القلوب ، وما كسبته .

رابعها — أن دخول الماء من المسام من غير قصد لا يفطر كمن يستحم ، فتتشرب مسامه بعض الماء ، ويظهر الأثر فى ذهاب ظمئه ، فإنه لا يفطر .

١٢ — وهنا نستطرد استطرادة وهو إدخال الأدوية بالحقن تحت الجلد أو فى العرق أو فى العضل أهى مفطرة ؟ إنه من البداهة أنه لا نص من صاحب الشرع فيه ، ولا نص عن أئمة الاجتهاد فيه إلا ما يروى من دخول الماء من بعض الجراح ، وهذا شىء غير الحقن ؛ لأن الحقن إدخال من المسام بعمد ومقصد ، فهل يسرى عليه حكم العامد ؟ .

وإن الذى يبدو لى بادى الرأى أنه إن كان الحقن فيه غذاء يستفيد منه الجسم تغذية كالحقن المقوية فإنها تفطر لا محالة ؛ لأنه غذاء قد تحقق فيه معنى الإفطار من كل الوجوه وإن كان الحقن لتنقية الجسم من الجراثيم ، أو لتنشيط أعضاء خاملة من غير غذاء فإنها تكون غير مفطرة ؛ لعدم تحقق معنى الإفطار فيها . وإنى فى هذا لم أعتمد إلا على قضيتين : القضية الأولى معنى الصوم والمقصد منه والغاية المبتغاة من شرعيته ، وإن هذه القضية انتهت بى إلى اعتبار المغذى من الأمصال مفطراً وهذا فى مرتبة البدهيات والقاعدة الثانية هى المشتقة من القرآن الكريم فى قوله تعالى : « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » وقوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وقد بنينا

على هذه القاعدة أن من يحقن بمصل علاجى لا غذاء فيه لا يفطر بالحقن ، وإن ذلك بلا شك يدخل فى صفوف الصائمين المرضى الذين لا يستغنون قط عن الحقن العلاجى الذى يوجب الطب عليهم أن يأخذوه ليلا ونهاراً .

هذا رأى ارتأيناه ، والأمر لا نص فيه ، إنما الفتوى فيه تستمد من لب الدين ومعناه ، ومن قواعده العامة التى جاء بها القرآن ، وكررتها السـنة وأولها : « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

١٣ — أما بعد فإن الصوم سمو بالإنسان وارتفاع به عن مراتع اللذات ؛ وهو عزاء الفقير ، وهو ضبط النفس ، وهو شكر النعمة ، فهل فهمه الناس ذلك الفهم ؟ هل فهموا أن الله شرعه ليعيش الفقير والغنى عيشة واحدة طول النهار وطرفا من الليل ، حتى يحسا بالتجرد الروحى ؛ والعلو النفسى ، وأن الناس سواء ، وأن اللذائذ التى تفرق يمحوها الصوم ليجتمع الناس ؟ !

لقد وجدنا الناس يتبارون فى رمضان فى إعداد مطارف العيش وملاذ الطعام ويغالون فى ذلك مغالاة ترمض نفس الفقير ، وتتخم معدة الغنى ، وينقلب شهر الروح إلى شهر طعام وشراب ، إلا أن ذلك يكون ليلا بدل أن يكون نهاراً ، فأين التجرد الروحى فى ذلك ؟ لقد وجدنا ناسا ينامون النهار كله فى رمضان حتى إذا استفاقوا من نومهم أخذوا يسلون أنفسهم بإعداد ألوان الطعام والاستمتاع بإعدادها ، حتى إذا أذن مؤذن المغرب انثالوا على الطعام فى نهمة انثيالا . ففى الطعام يفكرون طول الشهر ، يفكرون فى النهار لإعداده ، وفى الليل لالتهامه ؛ ثم يقضون بقية الليل فى مسامرات يتلو فيها القارئ كتاب الله أحيـانا وهم عنه لاهون بأحاديث تقرض من كرامات الناس ، وهى الغيبة التى يأكل فيها المسلم لحم أخيه حيا . وإن أنصتوا إلى القارئ فلكى يستمتعوا باللحن والغناء ، لا ليعتبروا بمواعظ الكتاب المبين .

إن رمضان فى حقيقته الشرعية صيام بالنهار وقيـام بالليل ما استطاع المؤمن إلى ذلك ، ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يعتكف فى العشر الأخيرة منه قياما بحق التجرد الروحى فيه ، وليفهم الناس حق الفهم معانيه . ولكن تغير الناس اليوم إلى ما ترى وهكذا صارت كل العبادات مظاهر وألوانا ، تركنا فيها الجوهر والحقيقة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . ؟

الدستور الإسلامي

في نظم الحكم والإدارة والاقتصاد والمال

للأستاذ الدكتور محمد عبد الله العربي

(٣)

قلنا في مقالنا السابق : إن تنظيم العالم الإسلامي ، وجمع شمله ، وتدعيم كيانه ، لصد كل عدوان عليه ، وتحرير كل بقعة فيه من ربقة الاستعمار الأجنبي ، ومن ربقة الفقر والجهل في داخله ، هذا التنظيم لا يتحقق بالتمني ، ولا بتبادل التواجد والتحسر على مجد غابر بقيت أطلاله ، وعلى رخاء باسق عفت آثاره ، وكرامة قومية أهدرها الغاصبون ، وحرية فردية عبث بها من لا يرعى كرامة الإنسان . هذا التنظيم إنما يتحقق بعمل إيجابي ، وجهاز حكومي يرسم الخطط المشتركة ، ويدبر وسائل تنفيذها ، ويعد الأداة اللازمة لهذا التنفيذ .

وقلنا إن هذا التنظيم الإيجابي يقوم على دعامتين :

١ — الدعامة الأولى : دستور محلي لكل دولة من الدول الإسلامية ، مستقلة أو في طريقها إلى الاستقلال ، دستور يلتزم مبادىء الإسلام الكلية ، ويختلف في تفصيلاته من بلد إلى بلد تبعا لمقتضيات البيئة ، ومستوى الثقافة في كل شعب ، وظروفه المحلية الخاصة . على أن يتسع هذا الدستور المحلي للتعديل المتعاقب — ودائما على ضوء مبادىء الإسلام الكلية — بحسب تطور ملابسات البيئة ، وارتقاء المستوى الثقافي ، وانتقال الحياة المحلية من دور بدائي إلى دور تقدمي .

٢ — الدعامة الثانية : دستور حكومي للعالم الإسلامي الشامل لهذه الدول الفرعية ، يقتصر نطاقه على تنظيم تعاونها وتكافلها في أمرين : في الشئون الاقتصادية أولا ، وفي الشئون الخارجية والدفاعية ثانياً ، ثم إعداد أداة التنفيذ لهذين الاختصاصين ، وإعداد وسائله المادية التي تضطلع بتدبيرها الجهود المشتركة للدول الإسلامية .

ومتى وُضع هذا الدستور وارتضته الأمم الإسلامية جميعاً وأعدت أداته التنفيذية ، ودُبرت الوسائل المادية لتنفيذه ، أدى للعالم كله أجل خدمة تنقذه من الانهيار الذي

يهدده ، وعلى الأخص من وجهتين : من وجهة توازن القوى العالمية ، ومن الوجهة الاقتصادية فى رفع مستوى المعيشة لأكبر مجموعة من البشر تمتد أقاليمها من المحيط الهادى إلى المحيط الاطلنطى .

* * *

وإذن فدراستنا المتتابعة فى هذه السلسلة إنما تنصب على محاولة رسم صورة تقريبية لهذين الدستورين فى خطوطهما الرئيسية .

ولنبدأ بالدعامة الأولى : الدستور الإسلامى المحلى :

من طلائع التوفيق التى تؤذن بقرب بلوغ الأمنية التى تجيش فى قلب كل مسلم أنى عند ما شرعت فى وضع الخطوط الرئيسية لما يجب أن يكون عليه دستور إسلامى محلى ، ظفرت بالحصول على نسخة من مشروع الدستور الباكستانى ، وهو فى الواقع تقرير اللجنة التى عهد إليها وضع هذا الدستور ، أى أنه مجموعة توصيات هذه اللجنة ، صيغت فى فصول ومواد متتالية . ولكنه ليس مجرد توصيات نظرية ، بل هو برنامج دستورى شامل للكليات والجزئيات على السواء .

وهو وإن كان دستورا اتحاديا Federal لمجموعة الأقاليم التى تتألف منها دولة الباكستان حاليا ، والأقاليم الإسلامية التى سوف تندمج فيها مستقبلا ، إلا إنى لازلت أعتبره — من وجهة نظر العالم الإسلامى ، وهى الوجهة التى نلتزمها فى هذه الدراسة — دستورا محلياً لإحدى الأمم الإسلامية الكبرى : الأمة الباكستانية .

عكفت طويلا على دراسة هذا المشروع ، وانتهيت من هذه الدراسة إلى الاقتناع بأن هذا المشروع الدستورى قريب من المثل الأعلى الذى أنشده لدستور أمة إسلامية . ذلك لأنه التزم الخطوط الرئيسية التى فرضها الإسلام — القرآن والسُّنة — ثم راعى فى التفصيل والتطبيق مقتضيات هذا العصر . وحقّ علينا أن نجعله — من حيث المبادئ الكلية — أنموذجاً للدساتير الإسلامية المحلية .

يتجلى ذلك لأول وهلة فى المادة الأولى التى تحدد الأهداف التى التزمت الدولة الباكستانية بتحقيقها ، كما يتجلى فى المادة الثانية التى ترسم المبادئ الأساسية التى تقوم عليها سياسة الدولة . وفى سياق هذا التسجيل للأهداف والمبادئ رسم المشروع خير صورة لحقوق الأفراد والجماعة على الدولة ، وهى ما تسميه الدساتير الغربية « الحريات العامة » ، ولكن التصوير الباكستانى لهذه الحقوق والحريات قد بلغ من التعمق والإحاطة ما لم يبلغه دستور غربى . وفى ذلك البرهان الحاسم — وإن كنا فى غنى عن الدليل — على أن الإسلام إذا فهمه أهله حق الفهم استطاعوا أن يستخرجوا منه خير نظام حكومى تقصر دونه عقلية البشر .

تقول المادة الأولى فى مطلعها :

« لما كانت السيادة على العالم كله لله القدير وحده ، وكانت السلطة التى منّ بها سبحانه وتعالى على دولة الباكستان عن طريق شعبها لتستعملها فى الحدود التى رسمها جلّ شأنه ، هى أمانة مقدسة »

« فهذه الجمعية التأسيسية ، التى تمثل شعب باكستان ، قد اعتزمت وضع دستور لدولة الباكستان المستقلة ذات السيادة ، طبقا للأهداف الآتية :

« تستعمل الدولة سلطانها واختصاصاتها بواسطة ممثلى الشعب المختارين .

« تلتزم الدولة فى استعمالها لهذا السلطان مبادىء الديمقراطية والحرية والمساواة والتسامح والعدالة الاجتماعية كما رسمها الإسلام »

قف معى عند كلمة « السيادة » -- « السيادة لله وحده » -- وتأمل هذا التصور الإسلامى الجديد لفكرة السيادة ، بل قل هذا التصور الإسلامى القديم الذى نسيناه ، فأصبحنا نخلع السيادة ، وما ينساب فيها من معانى الطغيان والتحكم المطلق على أفراد من البشر نذل لهم رقابنا ، ونلغى من أجلهم عقولنا .

السيادة فى الإسلام لله وحده ، البشر جميعاً سواء أمام هذا السيد الواحد الأحد ، فلا استعلاء لمخلوق على مخلوق ، ولا امتياز لقوم على قوم بحكم المولد ، أو المنصب ، أو القوة ، أو الثروة .

نظريات السيادة التى ملأ بها فلاسفة الغرب مئات المجلدات ، وصاغ فيها فقهاء الغرب عشرات المذاهب ، كلها تتضاءل أمام هـذا التصور الإسلامى ، ولا تدانيه فى بساطته ووضوحه ، وفى سمو أهدافه ، وفى عميق آثاره ، على تكييف مصائر البشر .

ثم انتقل معى إلى متابعة هذا التصور نستخلص منه بعض معانيه :

معنى أول هو أن هذه السيادة قد منّ الله بها على دولة الباكستان ، فهى إذن نعمة تستوجب شكر المنعم ، وشكر النعمة فى الإسلام ينصرف إلى القيام عليها بحسن الاستعمال وحسن التدبير ، فالسيادة تقترن هنا من البداية بوجوب حسن الاستعمال .

ومعنى ثان هو أن هذه السيادة التى منّ الله بها على دولة باكستان إنما من بها على « الدولة » لا على فئة معينة ، ولا على فرد معين ، وفى هذا قضاء على النظرية التيوقراطية فى تفسير السيادة ، التى كانت تذهب فى تصور السيادة كأنما هى وحى نزل من الخالق سبحانه وتعالى على فرد اصطفاه من خلقه ، تلك النظرية التى سيطرت على التفكير الأوروبى طوال القرون الوسطى وما تلاها من العصور إلى حين انفجار الثورة الفرنسية ، بل لا زالت أطلال هذا التفكير ماثلة فى بعض ألفاظ جوفاء

واصطلاحات رمزية ظل ينتحلها ملوك أوربا إلى عهد قريب ولا زالت ماثلة فى مراسم التتويج البريطانى إلى اليوم .

ومعنى ثالث هو أن هذه السيادة قد أنعم الله بها على دولة الباكستان « عن طريق شعبها » ، لتستعمل ما تنطوى عليه هذه السيادة من سلطات واختصاصات « بواسطة ممثلى الشعب المختارين » . وفى هذا خير تصوير للفكرة النيابية ، وخير تطبيق عملى لآية الشورى .

ومعنى رابع نشتقه من ظروف الباكستان الخاصة ، هو أن نعمة السيادة التى أنعم الله بها على دولة الباكستان هى نعمة مزدوجة ، ولذلك كانت جديرة بالتنويه والتسجيل . فقد لبث أهل الباكستان قروناً متعاقبة يكافحون أشد الكفاح فى سبيل استخلاص كيانهم وإنقاذ دينهم من كيد المستعمرين وعدوان المعتدين ، حتى جاءهم نصر الله ، فجمع شملهم فى دولة عزيزة الجانب لا سيادة فيها إلا لله وحده . وهم إذ يشكرون الله على هذه النعمة سيزيدهم من فضله ، فيرد إلى نطاق دولتهم ما زال من أقاليمها منبوذاً فى العراء .

***

ثم تمضى المادة الأولى فى تعيين واجبات الدولة نحو الرعية ، فتقرر :

واجب الدولة تمكين المسلمين من تنظيم حياتهم ومعاشهم — فى النطاق الفردى والجماعى — بما يطابق تعاليم الإسلام وفرائضه كما رسمها القرآن والسنة » .

« واجب الدولة تمكين الأقليات من ممارسة شعائر أديانهم وتنمية ثقافاتهم فى حرية تامة » .

« تكفل الدولة الحقوق الأساسية من المساواة فى المركز وفى تكافؤ الفرص وأمام القانون ، والعدالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسيه ، وحرية الفكر والتعبير والاعتقاد والعبادة والاجتماع ، كل هذا فى حدود القانون والآداب العامة » .

« تتخذ الدولة التدابير اللازمة لحماية مصالح الأقليات المشروعة ، والطبقات المتأخرة المستضعفة » .

هنا رسم الدستور الباكستانى فى أوجز عبارة صورة حية لواجب الدولة الإسلامية نحو رعيتها . أما المسلمون منهم فتهيىء لهم نظاماً فى معيشتهم الفردية والاجتماعية يهتدى بتعاليم الإسلام وفرائض الإسلام من تعاون وتراحم وتكافل ، ومن العمل الجاد الصادق فى تعمير الأرض واستغلال ما أودع الله فيها من خيرات وموارد ،

ومن إعداد العدة لحماية الأوطان والذود عن حياضها ، ومن تغليب المصلحة العامة على الشهوات الفردية . وأما الأقليات غير المسلمة فليمارسوا شعائر أديانهم وليعملوا على تنمية ثقافاتهم فى حرية تامة تكفلها لهم الدولة . بل لقد نص الدستور الباكستانى فى موضع آخر (المادة ٢١ والمادة ٩١) على جواز تولى المواطن الباكستانى غير المسلم أعلى منصب فى الدولة ، منصب الوزارة ، سواء فى الحكومة الاتحادية أو فى حكومات الولايات .

ثم مضت المادة فى تسجيل الحريات العامة التى عنيت بتسجيلها الدساتير الغربية من حرية الفكر والتعبير والاعتقاد والعبادة والاجتماع . ولكن تجربة الغرب أثبتت أن هذه الحريات لن يكون لها وزن ولا جدوى إذا لم تكفلها فرائض إيجابية تلتزم بها الدولة . أولى هذه الفرائض هى تحقيق المساواة بين المواطنين جميعاً ، ولكن على عكس أكثر الدساتير الغربية التى لم تعن إلا بالنص على المساواة القانونية عُنى الدستور الباكستانى أيضاً بالنص على المساواة فى تكافؤ الفرص ، إذ ما تكون قيمة المساواة أمام القضاء وأمام أحكام القانون إذا انعدمت المساواة بين الناس فى فرص تحسين حالهم وإصلاح أمرهم ، وكيف يتساوى من أتيحت له منذ مولده الفرص المواتية للتعلم والكسب الميسور بمن حرم هذه الفرص فصار يشق طريقه فى الحياة بغير عون أو مرشد ؟ أليس واجباً على الدولة أن تهيء لرعيتها جميعاً فرصاً متساوية للاستفادة بخيرات هذه الحياة ، يستوى فى ذلك الغنى والفقير ، والمجدود والمحروم ؟ ذلك ما فرضه الإسلام وذلك ما أبرزه دستور الباكستان .

وعندما نص على « العدالة » لم يكتف بالتعبير عنها تعبيراً مجرداً كما فعلت أكثر الدساتير الغربية ، بل فصلها تفصيلا حكيما ، فقرن العدالة السياسية بالعدالة الاقتصادية والعدالة الاجتماعية . وقد فشا انعدام هاتين العدالتين فى المجتمعات الغربية حتى أصبح كيانها الاجتماعى والاقتصادى معرضاً لهزات عنيفة تنذر بانهيار وشيك ، لفقدان العدالة فى توزيع الأجر بين القوى الإنتاجية فى المجتمع ، فاستأثر بعض هذه القوى بالجزاء الأوفى ، وظل أكثرها محروما من جزائه العادل ، الأمر الذى ولّد الضغينة والبغضاء ، وأشعل حرب الطبقات .

ثم عاد مرة أخرى إلى الأقليات ولم يكتف بما فرضه من قبل من تمكينها من ممارسة شعائر أديانها وتنمية ثقافاتها فى حرية تامة ، لم يكتف بهذا فجاء يخصها بعناية إيجابية مضاعفة ، إذ فرض على الدولة « اتخاذ التدابير اللازمة لحماية مصالحها

المشروعة » وذلك خشية أن تطغى عليها عن غير قصد مصالح الأكثرية ، وهذا إبداع فى الرفق بالأقليات وخفض الجناح لها وإيثارها بكل طيب فى الحياة . وهكذا ظفرت الأقليات فى الباكستان بمكانة ممتازة لم يهيأ شىء منها قط — فيما نعلم — لأقلية مسلمة فى بلد غير إسلامى . وهكذا ضرب الدستور الباكستانى الإسلامى المثل الأعلى فى التسامح الدينى والأخوة الإنسانية .

ثم مضى الدستور فى مادته الثانية يرسم المبادئ التوجيهية التى تهيمن على سياسة الدولة ، ولنسجل هنا نصها بالكامل :

١ — « الدولة تهتدى فى جميع سياساتها وجميع وجوه نشاطها بالأهداف التى رسمتها المادة الأولى .

٢ — تتخذ الخطوات — وعلى الأخص الخطوات المذكورة بعد — فى جميع الدوائر الحكومية لتمكين المسلمين من تنظيم حياتهم الفردية والجماعية على ضوء القرآن والسنة .

(ا) « يعمل كل تيسير لتمكينهم من فهم معنى الحيـاة على ضوء القرآن والسنة ، ويكون تعلم القرآن للمسلم فرضاً إجباريا . »

انظر إلى هذا التعبير الإسلامى البليغ معنى الحياة واقرأ قوله تعالى : «تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » . هذا هو المعنى الإسلامى للحياة : إحسان العمل .

(ب) « تحريم الخمر ، والميسر ، والبغاء ، فى جميع أوضاعها » .

وحسبك أن تجوس خلال الديار فى أرقى البلاد الغربية لتلمس ما فعلته هذه الآفات الثلاثة فى إشقاء شعوبها ، ولترى ما بذله أهل الفضل فيهم من جهود جبارة وبذل فياض ، سعيا إلى الحد من أوزارها ، فتتجلى لك حكمة الإسلام فى تحريمها تحريما باتا .

(ح) « استبعاد الربا بمجرد ما يكون ذلك فى حيز الإمكان » .

أما الربا الناشىء عن قروض بين المواطنين فى داخل الدولة فإبطاله ميسور فوراً ، وأما الربا الناشىء عن معاملات دولية فلا مناص من استبقائه إلى أجله ، لأننا لا نستطيع أن نلزم مواطنى دولة غير إسلامية بالتنازل عن فوائد قروضهم إلينا ، نزولا على حكم الإسلام .

فإلى أن ينتهى أجل هذه القروض ويتم سدادها ، وإلى أن تستطيع البلاد الإسلامية أن تقيم فيما بينها نظاما للتعاون الاقتصادى يقدر على تمويل مشروعاتها

الاستعمارية إلى أن يتم هذا وذاك ندعن كارهين لحكم هذه الضرورة الوقتية ، والضرورة قد تبيح المحظور .

(د) « صيانة المُثُل الإسلامية الأخلاقية » فالإسلام دين أخلاق واجتماع ، قبل أن يكون دين عبادة واعتكاف

(هـ) « تنظيم شامل لشئون الزكاة ، والأوقاف والمساجد » .

ومعلوم أن الزكاة إحدى فرائض الإسلام الخمس ، وفيها الغناء عن كل ما ابتدعه الغرب من تشريعات اجتماعية . وضرائب التأمين الاجتماعى Social Socurity ، والإحسان العام ، وكلها تشريعات معقدة ، عسيرة التنفيذ ، مكروهة من المكلفين بها

٣ — « إعداد أداة لنشر تعاليم الإسلام وتفقيه الشعب فيها ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

٤ — « تتخذ الخطوات الملائمة لتعديل التشريع القائم على نحو يجعله مطابقا لمبادئ الإسلام وصياغة الأوامر والنواهى الواردة فى القرآن والسنة بقدر ما يكون منها قابلا للتقنين »

فمن الأوامر والنواهى الواردة فى القرآن والسنة ما يقبل التقنين ويستطيع الحاكم أن يصوغه فى تشريع ملزم للرعية ، ويسهر الحاكم على نفاذه بما يسنه من جزاء ، ومنها ما لا يقبل التقنين ولا مناص من تركه لضمير الفرد ولرقابة الرب . فهذا تمييز دقيق يدل على تفقه واضعى الدستور الباكستانى وعلو كعبهم فى فن التشريع . ثم هو يبدأ بداية حكيمة : فقبل التشريع والتقنين يعد الأداة الكفيلة بنشر تعاليم الإسلام وتفقيه الشعب فيها (الفقرة ٤) حتى يستغنى بالوازع النفسى عن الوازع العقابى ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

٥ — « تتخذ الخطوات الملائمة لمنع وإحباط أى نشاط يتعارض مع أهداف الدستور الواردة فى المادة الأولى » .

هنا مظهر من مظاهر العزم فى الدولة الفتية . فمتى استقر الرأى البصير على بلوغ أهداف معينة وجب نبذ التردد فى ابتغائها ، ومكافحة الزيغ عن سننها . وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . فسلطان الدولة يجب أن يسخر فى خدمة هذه الأهداف ، وفى إحباط كل سعى خبيث إلى عرقلة بلوغها ، ورد كل ناكص على عقبيه إلى الصراط المستقيم .

٦ — « على الدولة أن لا تدخر وسعا لتوفير ضرورات الحياة كالغذاء ، والكساء ، والمأوى ، والتعليم ، والعلاج الطبى ، لجميع مواطنى الباكستان — مهما كان دينهم أو طبقتهم — الذين يكونون عاجزين عجزاً مؤقتا أو دائما عن كسب عيشهم بسبب بطالة عارضة أو عاهة أو مرض أو أى عائق آخر » .

هنا تتجلى إحدى وظائف الدولة الإسلامية ، التى لم تفطن لها الأمم الغربية إلا منذ عهد قريب ، ولم تنهض بها إلا فى نطاق محدود : وظيفة كفالة الجماعة الإسلامية لجميع أفرادها ، ولجميع مواطنيها القاطنين فى ديارها من غير المسلمين ، ولما كانت الدولة هى التى تمثل الجماعة من الوجهة النظامية فقد وجب أن تضطلع الدولة بهذه الوظيفة بالنيابة عن الجماعة ، وإنها لواجدة فى فريضة الزكاة موردا فياضا يعينها على تمويل مشروعاتها فى هذا الاتجاه .

***

ثم تنتقل المادة إلى رسم الخطوط الرئيسية لسياسة الدولة الاقتصادية ، فتقرر :

٧ — « يكون توجيه سياسة الدولة الاقتصادية على النحو الذى يحقق العيش الكريم لكافة المواطنين ، مهما كان دينهم أو جنسهم أو لونهم . وتستخدم هذه السياسة لإدراك المطالب الآتية :

(ا) « رفع المستوى المعيشى لسواد الشعب » .

(ب) « منع تركز الثروة ومصادر الإنتاج فى أيدى فئة قليلة إضراراً بسواد الشعب » .

(حـ) « تحقيق توازن عادل لحقوق العمال والزراع ، توازنا يحول دون استغلالهم » .

٨ — « على الدولة أن لا تألو جهداً فى محو الأمية من البلاد فى أقصر وقت مستطاع » .

٩ — « على الدولة — فى أقصر وقت مستطاع — تمكين سكان الأقاليم المختلفة — بواسطة التعليم والتدريب — من مباشرة جميع أنواع النشاط الإنتاجى والخدمات القومية » .

أما رفع المستوى المعيشى لسواد الشعب فهذا يقتضى من جانب الدولة الدأب على تحقيق « التوظيف الكامل » لجميع موارد البلاد الطبيعية والبشرية حتى لايبقى فيها مورد عاطل أو راكد ، ثم العمل على أن يكون توزيع ثمار هذا الإنتاج على العاملين فيه توزيعاً عادلا ، فلا تحابى فئة على فئة . ولايطغى المنتج الصناعى على المنتج الزراعى ، ولاذوو المال على الكادحين بأيديهم أو بعقولهم .

ثم على الدولة أن تكافح تركز الثروة ومصادر الإنتاج فى أيدى فئة قليلة ، وهذا لايتعارض مع اتساع أفق الانتاج ، واتساع أحجام المشروعات . والأخذ بالتكامل الإنتاجى integratoin طالما استقامت هذه الأساليب مع جودة الإنتاج وإقلال تكاليفه

وبشرط أن تكون ملكية مصادر الإنتاج شائعة فى جمهور الشعب ، لامركزة فى أيدى فئة قليلة تتحكم فى تحديد الأثمان وإرهاق المستهلكين . بعبارة أخرى : على الدولة الاسلامية أن تمنع نشوء الاحتكار الذى أصبحت تئن منه اقتصاديات الأمم الكبرى ، بل امتد أذاه إلى الاقتصاديات الدولية ، بعد أن نجح الاحتكاريون فى إقامة احتكارات عالمية تهيمن على سياسات الدول وتسيطر على مصائر البشر .

ثم تتجه المادة إلى إبراز الطابع الاسلامى للدولة الباكستانية ، فى الداخل وفى الخارج : ففى الداخل تسعى إلى تحقيق لاتحاد الشعبي والقضاء على العصبية الطائفية أو الجنسية ، وفى الخارج تسعى إلى تقوية أواصر التعاون الوثيق بين الدول الاسلامية ريثما يتحقق ارتباطها جميعاً بميثاق واحد ، وبولاء واحد لدولة اتحادية كبرى تجمع شمل العالم الإسلامى .

أما فى صلات الدولة الباكستانية بالعالم الخارجى غير المسلم فالمادة تسجل هنا رسالة الإسلام الإنسانية فى تدعيم السلم والأمن والوئام بين شعوب الأرض جميعاً . وهذا نص هذة الفقرات :

١٠ — « على الدولة أن تحارب بين مسلمى الباكستان النزعات غير الإسلامية سواء كانت طائفية أو قبلية أو جنسية ، وأن تغرس فى نفوسهم وحدة الملة ، وتربى فيهم سجية التضامن وماترمى إليه هذه الوحدة . وهذا التضامن من أهداف أنشئت لتحقيقها دولة الباكستان » .

١١ — « على الدولة أن تقوى أواصر الوحدة بين الدول الإسلامية جميعاً » .

١٢ — « يجب على الدولة أن توجه جهودها إلى تدعيم السلم والأمن والوئام بين شعوب الأرض جميعاً » .

هنا تتقدم الدولة الباكستانية — كدولة إسلامية مثالية — وتمديدها إلى جميع الدول الإسلامية الأخرى . وتتطوع مشكورة فى السعى إلى تقوية أواصر الوحدة بينها حتى ينتهى المطاف إلى إنشاء الدولة الإسلامية الكبرى .

ثم هى تعلن للعالم أجمع أنها لاتضمر عداء أو كراهية لشعب من الشعوب ، بل هى تفرض على نفسها أن تكرس جهودها لاحلال الوئام محل الخصام ، والتواد محل التقاطع ، سعيا إلى تدعيم السلام فى الأرض وتأمين الشعوب جميعاً .

أما الفقرات الباقية فى هذه المادة فلا يتسع هذا المقال لاستكمال التعليق عليها. ولكننا نشير إشارة سريعة إلى أهم عناصرها.

فالفقرة ١٣ تقرر : « لاينتخب رئيساً للدولة إلا الشخص الذى يتوافر فيه — فى رأى الناخبين — فضائل المقدرة ، والخلق المتين ، والنزاهة ، والتقوى ، والكفاية لتصريف شئون الدولة طبقا لأهداف الدستور » .

وفى موضع آخر من مشروع الدستور (المادة ١٦ من الباب الثالث) جعلت رئاسة الدولة لأجل موقوت — خمس سنوات — وجاء الفصل الأول من هذا الباب الثالث مفصلا لسائر أحكام هذا المنصب الذى لاينهض به إلا مسلم . ولنا عودة إلى استيفاء هذا الموضوع الدقيق ، والموازنة بين حجج القائلين بالتوقيت والقائلين بامتداد المنصب بغير قيد زمنى . وإن كنا نؤثر التوقيت لأنه أكثر انسجاما مع حسن الاضطلاع بأعباء هذا المنصب فى العصر الحاضر .

أما الفقرة ١٤ والفقرة ١٨ فتضعان مبدأ رئيسياً فى شأن القضاء ، فالأولى تقرر وجوب العمل على فصله عن السلطة التنفيذية لكى يتوافر له استقلاله ، والثانية تقرر مبدأ جديداً لم يرتق إليه إلى الآن التفكير الدستورى الأوروبى ، وهو مجانية التقاضى ، فلا رسوم كثيرة أو قليلة تؤود كاهل الفقير الضعيف وترده عن الالتجاء إلى ساحة القضاء للانتصاف من بغى الغنى أو عدوان القوى . وهذه أول مرة فى تاريخ التنظيم الحكومى تتقرر فيها مجانية سلعة العدالة .

وهذا نص هاتين الفقرتين :

١٤ — « على الدولة أن تتخذ فى خلال ثلاث سنوات الإجراءات التى تكفل تحقيق الفصل بين السلطة القضائية والسلطة التنفيذية » .

١٨ — « على الدولة أن تتخذ ما يكفل حصول الناس جميعهم على حقهم فى الانصاف عن طريق القضاء بغير أداء رسوم للدولة » .

ثم تعود المادة للمرة الثالثة (فى الفقرة ١٥) إلى تسجيل حدب الدولة الباكستانية على أقلياتها غير المسلمة ، إذ تقرر : « على الدولة أن تحمى جميع الحقوق والمصالح المشروعة للأقليات غير المسلمة » .

لم يبق فى هذه المادة — مادة المبادىء الرئيسية إلا فقرتان ، إحداهما (الفقرة ١٦) لها صبغة اقتصادية وهدف اجتماعى ونصها : « على الدولة أن تكفل للأطفال والشباب الحماية من الخضوع للاستغلال ، أو الزج بهم فى مهن لاتلائم سنهم أو جنسهم » . والثانية

(الفقرة ١٧) ذات صبغة مالية إدارية ونصها : « على الدولة أن تدبر المعونة المالية لمن كان يعولهم موظفو الحكومة الذين يتوفون قبل بلوغ سن المعاش وبدون أن يكون لهم مايقوم بأود عيالهم » .

***

وبعد فإننا لم نصل فى تعليقنا السريع على مشروع الدستور الباكستانى إلا إلى مادتين : مادة الأهداف ومادة المبادىء الرئيسية . وهو يتألف من مائتين وخمس وخمسين مادة ، والكثير منها حافل بتنظيمات حكومية وإدارية ومالية ، جديرة بالابراز والتعليق ، وسنعود إلى استيفاء التعليق عليها فى المقال القادم إن شاء الله .

ومنذ الآن أهيب بجميع الأمم الإسلامية أن تتدارس هذا المشروع الذى فصل لأول مرة نظام الحكم الإسلامى على ضوء مطالب العصر الحاضر ، وأن تقتبس منه مايلائم بيئتها وظروفها المحلية مادامت تلتزم فى هذا الاقتباس أصول الإسلام الكلية ؟



اعتراف كريم

لو عمت أفكار قرطبة وعلومها وتهذيبها جميع أوربا لبلغت أوج المدنية وتقدم العلم فيها تقدما عظيما فى القرن الثالث عشر ولكانت أمريكا وسائر بقاع الأرض قد اكتشفت قبل تاريخ اكتشافها واستعمرت بحكمة وإتقان أكثر وأسبق مما وقع لها . ولكان النوع البشرى بأسره اليوم متمتعا بثروة ورفاهية ورقى وحرية وسمو فكر مثلما سيكون حوالى سنة ٢٥٠٠ م .

« جوزيف ماك كيب »

العصبية الإسلامية فوق العصبيات

لأبى نعمان المهاجر

(٢)

نعود إلى مزيد من البيان لما تقتضيه الآية الكريمة التى أوردناها فى الحديث السابق — قل إن كان آباؤكم . . . الخ —

فى هذه الآية الكريمة ذكرت أكثر أسباب الحياة : الآباء والأبناء ، والإخوان ، والأزواج ، والعشيرة ، والأموال ، والتجارة ، والمساكن ، وهذه هى أهم عناصر الوطنية والقومية تقريبا ، وقد وضعت إزاءها فكرة الإسلام ورسالته فى شيء من المقارنة الرائعة المقنعة ، التى تأخذ بالعقول والألباب ، المقارنة بين عظمة الله ورسوله وشريعة الجهاد فى سبيله ، وبين هذه الأشياء من أسباب الوطن وحاجاته ، مما يدلنا دلالة واضحة على أن فكرة الإسلام جاءت لتحل محل النوازع الإقليمية والعنصرية ، أو جاءت على الأقل لتكون أسمى منها فى نفوس المسلمين وليكون لها القول الفصل ، والكلمة العليا إذا تعارضت الفكرتان فى حال من الأحوال . وإذا نحن تدبرنا روح السيرة المحمدية ، وتعمقنا فى بحث أسرارها وأصولها الأساسية ، واتجاهاتها العامة وجدناها تنطبق — وهذا أمر طبيعى — على روح هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات القرآنية أتم الانطباق .

وها نحن نسرد قصة حادثة من الحوادث فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام تصور لنا الهوة البعيدة التى كانت تفصل بين مبدأ العصبية القومية وبين مبدأ الإسلام : يروى أهل السيرة : أن أحد المنافقين يقال له « قزمان » وكان بطلاً شجاعاً ولكنه تخلف عن الذهاب مع المسلمين فى غزاة « أحد » فلما أصبح عيره نساء بنى قومه فقلن له : يا « قزمان » قد خرج الرجال وبقيت أنت يا قزمان ألا تستحى مما صنعت ؟ ما أنت إلا امرأة خرج قومك وبقيت فى الدار ؛ قالوا : فأحفظنه بهذا التقريع فدخل بيته فأخرج قوسه وجعبته وسيفه وخرج يعدو حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسوى صفوف المسلمين فجاء من خلف الصف حتى انتهى إلى الصف الأول فكان فيه ، وكان أول من رمى بسهم من المسلمين ، وجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح ، وإنه ليكت كتيت الجمل ، ثم صار إلى السيف ففعل الأفاعيل ،

فلما انكشف المسلمون كسر جفن سيفه ، وجعل يقول : الموت أحسن من الفرار ، يا للأوس ، قاتلوا على الأحساب ، واصنعوا مثلما أصنع . قالوا : فيدخل بالسيف وسط المشركين حتى يقال : قد قتل ، ثم يبدو فيقول : أنا الغلام الظفرى ، وما زال على ذلك يغمس نفسه فى لجة الموت حتى قتل من المشركين سبعة وأصابته الجراح وكثرت فيه فوقع فمر به قتادة بن النعمان فقال له : أبا الغيداق ، قال قزمان : لبيك ، قال : هنيئا لك الشهادة : قال قزمان : إنى والله ما قاتلت يا أبا عمر على دين ، ما قاتلت إلا على الحفاظ ، أن تسير قريش إلينا فتطأ سعفنا ، قالوا : فآذته الجراح فقتل نفسه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » وفى رواية أخرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « هو فى النار » .

فى هذه القصة تتجلى لنا أمور عديدة :

أولا — أن هذا الرجل الشجاع ضحى بحياته تضحية يعزُّ لها النظير .

ثانياً — أنه كان ذا غناء عظيم للمسلمين فى هذه المعركة .

ثالثاً — أن المسلمين كانوا معجبين ببسالته وبلائه وأنهم كانوا يظنون به الإسلام بدليل أن قتادة بن النعمان — ويظهر أنه كان على معرفة به — هنأه بالشهادة مما يدل على أنه كان يعتقده مسلماً حقا .

رابعاً — أنه لما هنأه بالشهادة رد عليه « قزمان » ينفى حقيقة الشهادة عن نفسه ويعلل ذلك بأنه لم يقاتل عن دين ، وإنما قاتل على الأحساب مما يبرهن بصورة واضحة أن القتال على الأحساب يناقض حقيقة الإسلام مناقضة ظاهرة بلغ من ظهورها أنه أصبح يعرفها حتى المنافقون .

خامساً — أن كل بلائه العظيم ، وكل تضحياته الرائعة لم تغن عنه من الله شيئاً لأنه لم يقتل فى سبيل الإسلام إنما قتل فى سبيل نعرة قومية ، ولهذا فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما سئل عنه قال : هو فى النار ، أو قال : إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر . ولا ريب أن هذه القصة الصغيرة تبرهن على أن الناس جميعاً كانوا يفهمون على البداهة أن الفكرة الإسلامية تتنافى مع العصبية العرقية ، وتختلف معها اختلافاً كثيراً والواقع أن المظهر الأول للاسلام فى ذلك العهد كان يتجلى فى أن الرجل الذى يقتنع بالدخول فى دين الإسلام كان أول عمل يعمله بعد أداء الشهادتين هو أن يقطع صلته بقومه وعشيرته إذا لم يكونوا قد أسلموا وينحاز إلى جماعة المسلمين ، وكانوا فى العادة من

غير قبيلته فتتغير عواطفه نحو قومه تغيراً عظيماً هائلاً فبعد أن كان يقاتل دون كل فرد منهم بدافع من الطبيعة والغريزة أصبح يقاتل كل فرد منهم بدافع الإيمان بالفكرة الإسلامية التي حلت محل الغرائز والنزعات المعرقة واكتسحتها وقضت عليها . فلا جرم لو أن الإسلام لم يحارب النعرة القومية ، ولم يعتبرها سمة من سمات الشرك ونزعة من نزعات الجاهلية لكان من المتعذر أن تنشأ في جماعة المسلمين الأولين عاطفة إسلامية مشتركة ، وهم كانوا خليطاً من قبائل عديدة مختلفة ،كان بين الكثير منها خصومات ودماء وأحقاد ، ولكان من المتعذر أيضاً أن يتأتى للنبي عليه الصلاة والسلام تجنيد أصحابه وسوقهم إلى قتال قومهم وذوي عصبيتهم من المشركين ، وهذا هو السبب في أن المشركين يوم « بدر » كانوا مترددين في قتال المسلمين لأنهم لم يتعودوا هذا النوع العجيب من القتال بين أبناء العشيرة والقبيلة الواحدة ، وكانوا يستفظعون هذه الحرب ويستعظمونها بينما كان المسلمون قد استبدلوا بالحمية العرقية حمية الإسلام فحميت بها عزائمهم وامتلأت بها صدورهم ، وأرهفت عليها صوارمهم ، فكانوا أشد على خصومهم بأساً وأشد تنكيلا ! .

وقد كان هذا التفاوت بين الفريقين عظيماً يوم « بدر » فبالرغم من أن الكثرة كانت في جانب المشركين فإنهم كانوا يقاتلون عن غير عقيدة ولا فكرة ، لهذا تخاذلوا واندحروا وأيد الله المسلمين تأييداً حاسماً ، حتى امتن الله في ذلك على نبيه عليه الصلاة والسلام فقال سبحانه : « هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » . وهذه الآية تشعر بأن الألفة بين المؤمنين والأخوة الإسلامية بينهم كانت في مقدمة أسباب النصر والتأييد ، والتفوق المعنوي على المشركين ؛ لذلك جاء بعدها قول الله عز وجل : « يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال » . . . الآية .

وصية ملهم :

العقبات فى طريقنا

للامام الشهيد حسن البنا

أيها الإخوان : أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس ويوم يعرفونها ويدركون مراميها وأهدافها ستلقى منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية ، وستجدون أمامكم كثيراً من المشقات ، وسيعترضكم كثير من العقبات وفى هذا الوقت وحده تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات . أما الآن فلا زلتم مجهولين ولا زلتم تمهدون للدعوة وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد . سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة فى طريقكم ، وستجدون من أهل التدين ومن العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للاسلام وينكر عليكم جهادكم فى سبيله ، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان ، وستقف فى وجهكم كل الحكومات على السواء ، وستحاول كل حكومة أن تحد من نشاطكم وأن تضع العراقيل فى طريقكم .

وسيتذرع الغاصبون بكل طريق لمناهضتكم وإطفاء نور دعوتكم ، وسيستعينون فى ذلك بالحكومات الضعيفة والأخلاق الضعيفة والأيدى الممتدة إليهم بالسؤال وإليكم بالإساءة والعدوان .

وسيثير الجميع حول دعوتكم غبار الشبهات وظلم الاتهامات وسيحاولون أن يلصقوا بها كل نقيصة وأن يظهروها للناس فى أبشع صورة معتمدين على قوتهم وسلطانهم ، ومعتدين بأموالهم ونفوذهم : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » وستدخلون بذلك ولا شك فى دور التجربة والامتحان ؛ فتسجنون وتعتقلون وتنقلون وتشردون وتصادر مصالحكم وتعطل أعمالكم وتفتش بيوتكم ، وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان :

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون » ولكن الله وعدكم من بعد ذلك كله نصرة المجاهدين ومثوبة العاملين المحسنين « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . . . فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » فهل أنتم مصرون على أن تكونوا أنصار الله ؟

***

أيها الإخوان المسلمون ، اسمعوا :

أردت بهذه الكلمات أن أضع فكرتكم أمام أنظاركم فلعل ساعات عصيبة تنتظرنا يحال فيها بينى وبينكم إلى حين ؛ فلا أستطيع أن أتحدث معكم أو أكتب إليكم ، فأوصيكم أن تتدبروا هذه الكلمات . وأن تحفظوها إذا استطعتم وأن تجتمعوا عليها . وإن تحت كل كلمة لمعانى جمة . . .

***

أيها الإخوان : أنتم لستم جمعية خيرية ولا حزبا سياسياً ولا هيئة موضعية لأغراض محدودة المقاصد . ولكنكم روح جديد يسرى فى قلب هذه الأمة فيحييه بالقرآن ؛ ونور جديد يشرق فيبدد ظلام المادة بمعرفة الله ؛ وصوت داو يعلو مردداً دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ومن الحق الذى لاغلو فيه أن تشعروا أنكم تحملون هذا العبء بعد أن تخلى عنه الناس . إذا قيل لكم إلام تدعون ؟ فقولوا ندعو إلى الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم والحكومة جزء منه والحرية فريضة من فرائضه ، فإن قيل لكم هذه سياسة ! فقولوا هذا هو الإسلام ونحن لا نعرف هذه الأقسام ، وإن قيل لكم أنتم دعاة ثورة ! فقولوا نحن دعاة حق وسلام نعتقده ونعتز به ؛ فإن ثرتم علينا ووقفتم فى طريق دعوتنا فقد أذن الله أن ندفع عن أنفسنا وكنتم الثائرين الظالمين ، وإن قيل لكم إنكم تستعينون بالأشخاص والهيئات فقولوا : « آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنتم به مشركين » فإن لجوا فى عدوانهم فقولوا : « سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » .

نحو مجتمع إسلامى :

مجتمع عالمى

الأستاذ سيد قطب

(٢)

أما القتال فقد شرع لغرض آخر . . . شرع للدفاع عن حرية المسلمين الذين أوذوا فعلا بسبب عقيدتهم ، وأخرجوا من ديارهم ، لغير ما سبب إلا أن يقولوا : ربنا الله . وفى هذا يقول القرآن الكريم : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وإِنَّ اللهَ على نصرِهِم لقدير . الذينَ أُخرِجوا مِنْ دِيارِهم بغير حقٍّ إلا أنْ يَقولوا : ربُّنا اللهُ . ولَوْلا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لهُدِّمَتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً ، ولينصرَنَّ اللهُ مَنْ ينصرُه . إنَّ اللهَ لقويٌّ عزيز . الذينَ إنْ مكنَّاهم فى الأرضِ أقاموا الصَّلاةَ وآتوُا الزَّكاةَ ، وأمرُوا بالمعرُوفِ ونهوْا عن المنكر . ولله عاقبةُ الأمور »(١) .

ومع أن صدر هذا النص يكشف عن السبب المباشر فى الإذن للمسلمين بالقتال ، فإن بقيته تبين حكما عاماً فى مشروعية القتال . وغاية الله من نصر من ينصرهم فيه . وذلك هو ضمان حرية العقيدة عامة للمسلمين وغير المسلمين وتحقيق الخير فى الأرض والصلاح . فهو يقول : إنه لولا مقاومة بعض الناس وهم المؤمنون لبعض الناس وهم الظالمون « لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد » والصوامع معابد الرهبان والبيع كنائس النصارى ، والصلوات كنائس اليهود ، والمساجد مصليات المسلمين . وهو يقدم الصوامع والبيع والصلوات فى النص على المساجد توكيداً لدفع العدوان عنها . فهى إذن دعوة إلى ضمان حرية العبادة للجميع واحترام أماكن العبادة جميعاً . ثم وعد بالنصر الذى يؤدى إلى تمكين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر العابدين لله ، الباذلين أموالهم للعفاة . . .

---

(١) الحج : ٣٩ ، ٤١ .

فالإسلام لا يريد حرية العبادة لأتباعه وحدهم . إنما يقرر هذا الحق لأصحاب الديانات المخالفة . ويكلف المسلمين أن يدافعوا عن هذا الحق للجميع ، ويأذن لهم في القتال تحت هذه الراية . راية ضمان حرية العبادة لجميع المتدينين . . . وبذلك يحقق أنه نظام عالمي حر ، يستطيع الجميع أن يعيشوا في ظله آمنين ، متمتعين بحرياتهم الدينية على قدم المساواة مع المسلمين وبحماية المسلمين .

ومع الإذن للمسلمين بالقتال لتحقيق هذا الغرض ، فإنهم أمروا ألا يعتدوا ، وحددت لهم الأحوال التي يجب فيها القتال لتحقيق ذلك الغرض والتي فيها لا يجوز . فهم مكلفون أن يقاتلوا من يقاتلونهم ، ومن يفتنون فريقاً منهم عن دينهم — والفتنة أشد من القتل لأنها اعتداء على أخص خصائص الإنسان ، وهي حرية الوجدان — وهم منهيون عن الاعتداء . وعن قتال أعدائهم في الأمكنة والأزمنة التي يحرم فيها القتال إلا إذا بدأوهم بالقتال :

« وقاتلوا في سبيلِ اللهِ الذين يُقاتلونكم ، ولا تعتَدوا ، إنّ اللهَ لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم . والفتنة أشد من القتل . ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرماتُ قصاصٌ . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين[1] » .

وهنا نجد كذلك أن الغاية من هذه الحروب هي دفع العدوان بدون اعتداء ، ودفع الفتنة عن الدين وترك الدين لله . والقاعدة العامة هي أن لا حرب إلا مع المحاربين ومع الطغاة الذين يصدون الناس عن دينهم ظالمين . ولا عدوان إلا على الظالمين .

هنالك فريق آخر يدعو الإسلام إلى حربهم حرباً وقائية . أولئك الذين ينقضون معاهداتهم السلمية مع المسلمين ، ويكررون هذا النقض ، بحيث يبقى المسلمون في قلق من خيانتهم في كل لحظة ، فعلى المسلمين أن يعلنوهم بنبذ ما بينهم وبينهم من معاهدات.. ولكن حتى هؤلاء ليس للمسلمين عليهم من سبيل إذا هم آثروا السلم وجنحوا إليها واختاروها :

« إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين عاهدتَ منهم

(١) البقرة : ١٩٠ — ١٩٤

ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ، وهم لا يتقون . فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء . إن الله لا يحب الخائنين . ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا أنهم لا يعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم اللهُ يعلمهم . وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله . إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبكَ اللهُ هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين[١] » .

وهنالك راية أخرى يحارب تحتها الإسلام كما قلنا . راية حماية الضعفاء من الظلم . الظلم كافة قياماً بشريعة الله فى العدالة الإنسانية بغير ما غاية سوى تحقيق كلمة الله فى سبيل الله :

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتلْ فى سبيل الله فيقتَلْ أو يَغلبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيما . وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستَضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا ؟ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً[٢] »

وإذن فهى الحرب كذلك لدفع الظلم والطغيان ، لا للاكراه على العقيدة ، ولا كراهية للآخرين بسبب العقيدة . إنما هى الوسيلة العملية لدفع الظلم وإقامة العدل ، وتحقيق الأمن وحماية الضعفاء .

وفيما عدا تلك الأغراض التى استعرضنا ، لا يحتسب الإسلام للمسلم أجراً فى قتاله ، ولا يقبل منه جهاداً ليس فى سبيله . . جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى . فمن فى سبيل الله قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله[٣] » .. وكلمة الله هى إحقاق الحق ، ودفع الظلم ، وحرية العقيدة ، على النحو الذى أسلفنا .

وتكلة لإيضاح شبهة التعصب الإسلامى ، التى تعرض لمن لا يعرفون حقيقة الإسلام نستعرض بعض النصوص القرآنية الأخرى ، التى يعتمد عليها المشتهون والمغرضون : جاء فى القرآن الكريم : « إن الدين عند الله الإسلام[٤] »

(١) الأنفال : ٥٥ — ٦٢
(٢) النساء : ٧٤ — ٧٦
(٣) أخرجه الشيخان
(٤) آل عمران : ١٩

« ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه[١] » . . فما المعنى المقصود من كلمة الإسلام فى هاتين الآيتين ؟

إن الإسلام تمشيا مع طبيعته العالية . قد احتضن الرسالات والديانات كلها من قبله وقرر مع وحدة الإله ، وحدة العقيدة ، ووحدة الدين الذى أرسل الله به رسله جميعاً فكل الرسل جاءوا بدين واحد ، هو الإسلام . إسلام القلب لله وحده بلا شريك . وهذا هو أساس العقيدة الذى لا يتبدل . أما التشريع الذى ينظم حياة الجماعة فهو الذى يتطور فى الرسالات الإلهية على أيدى الرسل ، تبعاً لمصلحة البشرية ودرجة نموها . وتطور إدراكها . . . حتى إذا جاء الإسلام فى صورته النهائية التى جاء عليها فى رسالة محمد — صلى الله عليه وسلم — كان قد احتضن الفكرة الأساسية فى دين الله الواحد ، واستبقى الصالح من المبادئ والتشريعات والنظم فى الرسالات السابقة ، وأكمل الناقص منها وأتمه : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا[٢] » .

وإذن فكل من مات مسلما لله من أهل كل ديانة قبل أن تأتى الديانة التالية ، فقد مات على (الإسلام) وقبل الله منه إسلامه وعلى الله حسابه فيما أحسن أو أساء :

« بلى ! من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون[٣] » . « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون[٤] » .

فأما بعد رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد أصبح الدين هو الإسلام فى صورته الأخيرة « مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه[٥] » . . جامعا للأصول الثابتة فى الرسالات قبله فمن ابتغى غير الاسلام دينا فلن يقبل منه .

ولكن القبول وعدم القبول إنما هو مسألة بين الرب والعبد . ولا تعنى بأية حال إكراه غير المسلمين على الإسلام . إنما هذا بيان لهم من الله ، وموعظة أن يسارعوا إلى دين الله كما أراده الله وألا يتشبثوا بصور من هذا الدين فات أوانها ، وأدت دورها فى حينها ، ولم تعد صالحة بعد هذا الأوان ، إذا هم رغبوا فى طاعة الله ، وحرصوا على رضاه . فإن تولوا فإنما أمرهم إلى الله .

---

(١) آل عمران : ٨٥ (٢) المائدة : ٣ (٣) البقرة : ١١٢
(٤) البقرة : ٦٢ (٥) المائدة : ٤٨

« قل : يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون[١] » .

ويحسن أن نعرض هنا بعض النصوص فى وحدة العقيدة ، وفى بيان أن كل دين كان هو الإسلام فى صورة من صوره الموحدة الأصل . ذلك أن هذه النصوص تكشف لنا عن الطبيعة العالمية للاسلام ، باحتضانه كافة العقائد السماوية قبله ، واحترامها ، واحترام أنبيائها وأتباعها ، ومودته للمؤمنين منهم ، وسماحته بحرية العبادة حتى لمن لم يؤمنوا به ، ما لم يقاوموه ويحادوه :

فى سورة الأعراف ترد قصص نوح وهود وصالح متجاورة ، فيرد فيها نص واحد على لسان هؤلاء الأنبياء فى دعوتهم إلى أقوامهم منذ أقدم الرسالات :

« لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره[٢] ... »

« وإلى عاد أخاهم هوداً قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره[٢] ... »

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره[٢] ... »

وفى سورة البقرة دعاء على لسان إبراهيم وإسماعيل فى أثناء قيامهما ببناء البيت الحرام يقولان فيه : « ربنا واجعلنا مُسلِمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك »[٣]

وحكاية كذلك عن إبراهيم ويعقوب والأسباط : « ومَنْ يرغبُ عن مِلة إبراهيم إلا من سَفِهَ نفسه ، ولقد اصطفيناهُ فى الدُّنيا ، وإنهُ فى الآخرةِ لمن الصالحين ، إذ قال لهُ ربُّهُ : أسلِمْ قال : أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ ، يا بنىَّ إن الله اصطفى لكم الدِّين ، فلا تموتنَّ إلا وأنتم مُسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموتُ ، إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبدُ إلهكَ وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحنُ له مسلمون »[٤]

وهكذا يتضح أن الرسل جميعا جاءوا برسالة واحدة هى عبادة الله وحده بلا شريك وهى الإسلام فى معناه العام . وعلى أساس هذا كان إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط « مسلمين »[٥] .

وتبعاً لهذه الحقيقة الكلية يؤمن المسلمون بالرسل جميعا ، ولا يفرقون بينهم ،

---

(١) آل عمران : ١٤٤ (٢) الأعراف : ٥٥ ، ٦٥ ، ٧٣

(٣) البقرة : ١٢٨ (٤) البقرة : ١٣٠ — ١٣٣

(٥) يراجع فصل « القصة فى القرآن » فى كتاب « التصوير الفنى فى القرآن ».

ولا يكرهون دياناتهم ، ولا أتباع هذه الديانات ، وكل ما يطلبونه منهم أن يؤمنوا هم كذلك بما جاء به محمد — صلى الله عليه وسلم — مصـدقاً لما بين أيديهم ، فإن لم يستجيبوا فهم وما يشاءون ، وليدعوا المسلمين آمنين ، يبلغون دعوتهم للعالمين :

« شرع لـكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليـك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه [1] » . « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ،لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون ، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » [2]

« يتبع »



لا إفراط ولا تفريط

إن حواسنا لا تستطيع أن تدرك الإسراف ، فالضجة الـكبيرة تصم آذاننا ، والضوء الـكثير يعمينا والأشياء البعيدة جداً والقريبة جداً لا نراها ، والطويلة جداً والقصيرة جداً لا نفهمها ، والحقائق الـكثيرة تبهتنا .

« العالم بليز باسكال »

---

(١) الشورى : ١٣

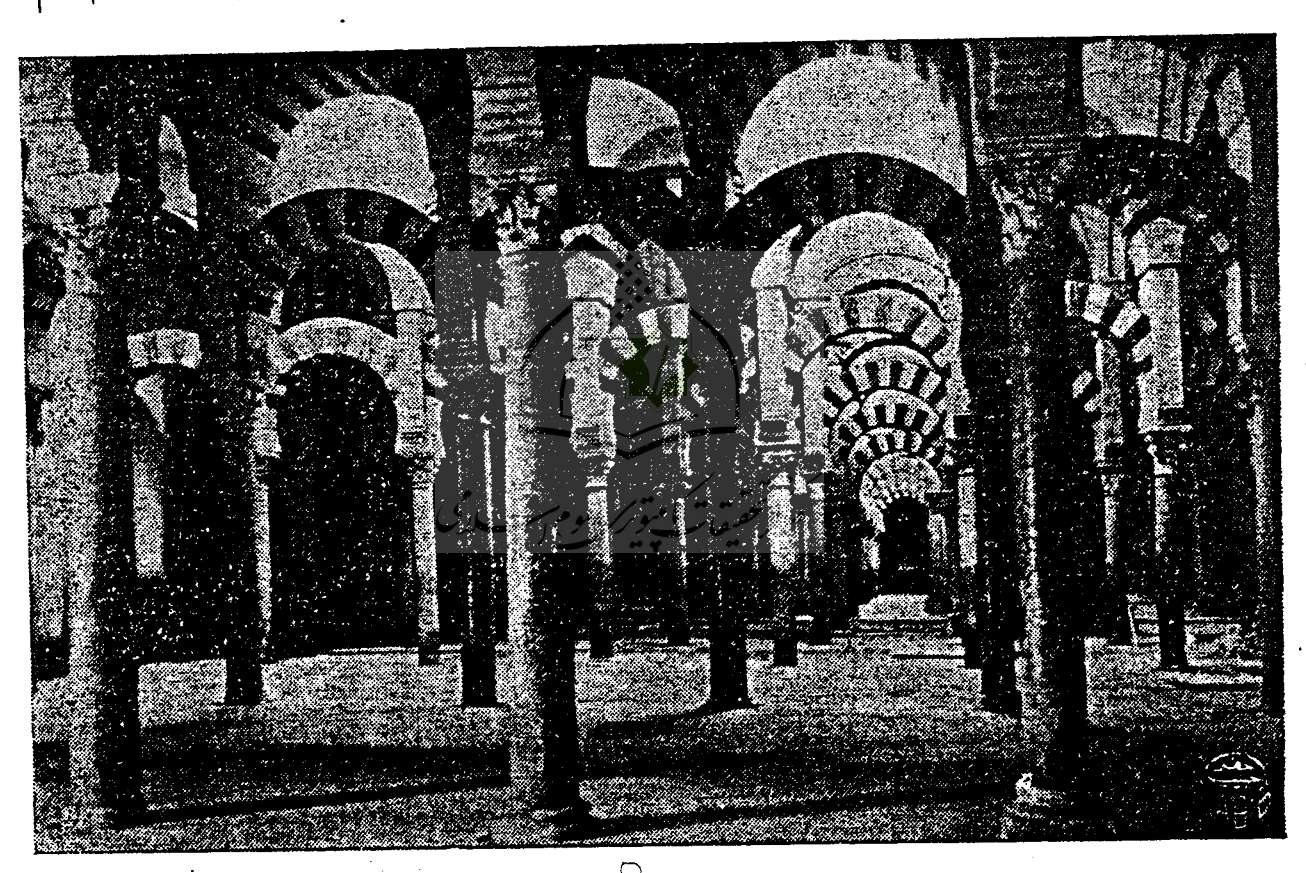
(٢) البقرة : ١٣٦ — ١٣٧

خاطرة

في مسجد قرطبة !

كان ذلك يوم الخميس ٢٧ من رجب سنة ١٣٧٠ — ٣ من مايو سنة ١٩٥١ ، ووصل القطار في السابعة صباحاً إلى قرطبة ويسميها الأسبان (Cordoba) ، ووضعت أمتعتي في فندق سيمون ... ومن طريف ما صادفني في هذا الفندق صبيان ظريفان فيهما سحنة عربية ، همس أحدهما في أذني عبارة أسبانية فهمت منها أنه من أصل عربي ! وخرجت إلى المدينة لأشهد معالمها ، فإذا باليوم يوم « عيد النصر » : انتصار النصرانية ، وهو عيد ديني مقدس تعطل له الدوائر الرسمية ، ويرتدي فيه الأطفال لباس الفرسان الصليبيين ويخرجون في الشوارع والطرقات على صدورهم الصلبان وفي أيديهم الأناجيل ...

وقصدت إلى مسجد قرطبة ... وهو المسجد العظيم الذي بناه عبد الرحمن الداخل في أوائل القرن الثاني ... طوله : ١٧٥ متراً ، وعرضه ١٣٤ متراً ، وارتفاعه : ٢٠ متراً ؛ وكان فيه ١٢٩٣ عموداً من الرخام ،



مسجد قرطبة

وكانت قبته التي أزيلت ليقام مقامها الكنيسة تقوم وحدها على ١٦٣ عموداً ... ومئذنته التي علقت بها الأجراس لا تزال شاهقة رهيبة ... وأماكن الوضوء المهجورة كما هي ، والمحراب الرائع المذهل يكاد يسمعك قرآن صلوات كثيرة شهدها هذا المسجد حين كان عدد المسلمين في قرطبة وحدها نصف مليون ! ! وليس فيها اليوم مسلم واحد وقد وقفت أتأمل المحراب طويلا وأنا أسمع ترتيلات نصارى قرطبة وهم يصلون إلى جانب المحراب ! ! وانتابتني إذ ذاك حيرتان أليمتان : حيرة بين وصية الرسول صلى الله عليه وسلم ألا نزين المساجد وبين ما أرى من فن أخاذ لعل ما فيه من ترف هو بعض ما أودى بالمسلمين ، وحيرة أخرى بين أن أعتز بفن المسلمين حين كانت أوربا تسكن الأكواخ ... وأن أطأطىء الرأس من ذل الواقع المر الذي يمثله كل ما حولي ... وأخيراً غلبني الحياء العزيز فانصرفت منفطر القلب ! !

من فقه القرآن والسنة

شروط البيع

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

(٣)

عدم الربا :

عندما نزل قوله تعالى فى سورة البقرة : « وأحلَّ الله البيع وحرَّم الربا » ، مضافاً إلى ذلك ما جاء فى آيات أخرى وفى السنة النبوية من النهى عن الربا ، عرف المسلمون أن الربا فى جميع صوره وألوانه محرم شرعاً ، وإذاً يكون العقد الربوى عقداً باطلا بإجماع الأمة .

حقيقة ، إن علماء الفقه قد اختلفوا فى أن الآية التى ذكرناها عامة فى تحريم كل كل ربا ، وإذاً فلا تحتاج لبيان آخر من الكتاب أو السنة ؛ أو هى من قبيل المجمل ، فلابدّ له من بيان نعرف منه الربا المحرم . هذا الخلاف وُجد حقاً بين الفقهاء ، ولكن الصحيح من الآراء أن الآية من قبيل العموم الذى لا يحتاج لبيان آخر ، فيكون كل ربا محرما مهما كانت صورته . ولهذا ، تجد القاضى أبا بكر بن العربى يشتد فى نُصرة هذا الرأى ، حتى ليقول : « إن من زعم أن هذه الآية مجملة لم يفهم مقاطع الشريعة » . . . . إلى آخر ما قال[1] .

ليس لنا إذاً أن نطيل فى الحديث عن حرمة البيوع الربوية وبطلانها ، فذلك أمر أجمع عليه المسلمون فى كل عصر مستندين لنص الكتاب والسنة ، ولكن هناك من البيوع ما يشتبه فيها الحال ، فقد يرى البعض أنها ربوية فيحرمونها ، على حين لا يرى آخرون ذلك فلا يرون فيها بأساً . ومن هذه البيوع بيع الوفاء ، وبيع العينة . ولذلك نرى أن نتناول كلا منهما بكلمة لعلها تجلو وجه الحق وتبين عن الحكم الواجب الاتباع .

---

(١) أحكام القرآن ، حـ ١ : ١٠١ — ١٠٢ . وانظر القرطبى حـ ٣ : ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، والجصاص حـ ١ : ٤٦٤ — ٤٦٥ ، ففيهما أن الآية مجملة احتاجت إلى بيان قد جاء فى الآيات والأحاديث الأخرى ، فيكون الاتفاق تاماً بين الجميع على حرمة كل ما يطلق عليه لغة وشرعاً أنه ربا .

بيع الوفاء :

هذا البيع معروف فى الريف بصفة خاصة ، والناس منه فى أمر مريج ؛ فمنهم من يقدم عليه بدافع الحاجة ، ومنهم من يحجم عنه توقيا للربا وشبهته . وصورته أن يبيع إنسان قطعة من أرضه مثلا بثمن معلوم ، على أن يردها له المشترى أو يبيعها له ثانيا إذا رد له الثمن الذى أخذه منه فى مدة يحددانها .

وقد اشتد فى حكمه الشرعى اختلاف العلماء ، لأنه ليس من السهل تكييفه قانونا . فإن له صورة البيع كما هو معروف ، وفيه بعض أحكامه المقصودة من البيع كانتفاع المشترى بالمبيع الذى اشتراه . كما أن فيه معنى الرهن ، بل قيل إنه رهن حقيقة ما دام قد اشترط فيه أن يرد المشترى ما اشترى إذا دفع له البائع ما أخذ من الثمن بعد حين ، ولكن فى الرهن ليس للمرتهن — وهو هنا المشترى — الانتفاع بالشىء المرهون ، وأخيراً ، فيه شبه من الإقالة ، لأن المشترى قد قبل رد المبيع للبائع عند طلبه ذلك متى رد الثمن كما قلنا .

من أجل ذلك كله ، اختلف الفقهاء فى حكمه اختلافاً كبيراً كما ذكرنا . فهذا صاحب كتاب « جامع الفصولين » يذكر أن « البيع الذى تعارفه أهل زماننا وسموه بيع الوفاء هو رهن فى الحقيقة ، لا يملكه ولا ينتفع به إلا بإذن مالكه ، وهو — أى المشترى — ضامن لما أكل من ثمره وأتلف من شجره ، ويسقط الدين بهلاكه لو بقى ولا يضمن الزيادة ، وللبائع استرداده إذا قضى دينه ، لا فرق عندنا بينه وبين الرهن فى الأحكام »[1] .

وقال صاحب الدر المختار إن هذا بيع يفيد الانتفاع بالشىء المبيع ، وعليه الفتوى . ثم إن ذكر البائع والمشترى الفسخ ، أى الوفاء بالدين ورد المبيع ، فى العقد أو قبله أو زعماه غير لازم كان مبيعاً فاسداً[2] ، ولو بعده على وجه الميعاد جاز ولزم الوفاء به لحاجة الناس وهو الصحيح .

ولنا أن نقول ، بعد هذا وذاك ، إن وصف البيع فى هذا العقد أظهر بكثير من وصف الرهن ، لا سيما والمرتهن لا يدفع عادة لمالك الشىء المرهون إلا نحو نصف قيمته أو أكثر قليلا ، على حين أنه فى بيع الوفاء يدفع المشترى ثمن المثل عادة ، وهذا

---

(١) انظر فى هذا وما بعده حاشية ابن عابدين على الدر المختار ج ٤ : ٢٥٧ — ٢٦٠
(٢) لأنه حينئذ يكون بيعا وشرطا ، وقد نهى الرسول عن بيع وشرط .

على الرغم مما نقله صاحب الدر المختار عن بعض الفقهاء من الأحكام التى تجعل هذا العقد رهناً ، ومن هذه الأحكام[١] :

(ا) لو باع البائع ما باعه بشرط الوفاء لآخر بيعاً باتاً ، توقف هذا العقد الثانى على إجازة المشترى الأول .

(ب) لو باع المشترى ما اشتراه بشرط الوفاء ، فللبائع الأول أو ورثته حق الاسترداد بدفع الثمن الذى كان قد أخذه .

(حـ) يقوم ورثة كل من البائع والمشترى فى هذا العقد مقام مورثهم ، نظراً لجانب الرهن .

والنتيجة ، أننا نميل إلى اعتبار هذا العقد عقد بيع ، وأنه جائز استحساناً اعتباراً للعرف ولحاجة الناس ، وفى هذا يذكر ابن نجيم المصرى الحنفى أن الفقهاء قالوا بأن بيع الوفاء صحيح « لحاجة الناس فراراً من الربا . فأهل بلخ اعتادوا الدين والإجارة ، وهى لا تصح فى الكرْم ؛ وأهل بُخارى اعتادوا الإجارة الطويلة ولا يمكن فى الأشجار ، فاضطروا إلى بيعها وفاء ، وما ضاق على الناس أمر إلا واتسع حكمه[٢] » .

وما أحرانا أن نقر العرف الذى أقره أسلافنا الفقهاء ، توسعة على الناس وإبعاداً لهم عن الاقتراض بالربا . وبخاصة ، وليس فى هذا البيع إلا الوعد من المشترى برد ما اشتراه إلى مالكه حين يدفع له الثمن الذى كان قد أخذه منه . على أنه لا بد من اشتراط أجل يباح فيه للبائع استرداد ما باعه على هذا النحو ، وإلا كان البيع باتاً نهائياً ، ضماناً لاستقرار المعاملات .

بيع العينة[٣] :

هذا البيع ليس فى حقيقته إلا حيلة للتعامل بالربا ، فهو إذاً وسيلة إلى غرض أو عقد غير مشروع . ومن صوره أن يحتاج إنسان إلى مائة من الجنيهات مثلا ، فيذهب إلى آخر يريد اقتراضها منه بفائدة عشرة فى المائة مثلا ، لكن هذا يجب أن

---

(١) حـ ٤ : ٢٥٨ . وانظر ابن عابدين فى الصفحة نفسها ، إذ يذكر عن الفتاوى الخيرية أن البائع لو استأجر ما باعه وفاء لا تصح الإجارة ولا تجب الأجرة عليه ، لأنه عقد رهن .

(٢) الأشباه ، المجلد الأول ص ١٣٥ .

(٣) العينة بكسر العين المهملة : السلف ، يقال : باعه بعينة ، أى نسيئة ، وفى المصباح وقيل لهذا البيع عينة ، لأن مشترى السلعة إلى أجل يأخذ بها عيناً أى نقداً حاضراً .

يتظاهر بالتورع والبعد عن الربا ، فيقول له أبيعك هذا الشيء بمائة وعشرة من الجنيهات تدفعها بعد عام ، فإذا ما قبض المبيع باعه هو إلى صاحب المال بمائة جنيه حالة ، ثم بعد عام يؤدى إليه الثمن الأول وهو المائة وعشرة ، فيكون الفرق فائدة أو ربا لصاحب المال الذى بدا وكأنه بائع ومشترى .

وقد يتوسط بين الطرفين شخص ثالث ، يقوم بشراء العين المبيعة إلى أجل من مريد الاقتراض بثمن حال أقل من الثمن المؤجل ، ثم يبيعها للمقرض بما اشتراها به ، فيكون الفرق فائدة للمقرض نفسه .

وهكذا ، نرى أن هذا العقد فى الصورة الأولى أو الأخرى ، ليس عقد بيع وشراء حقيقيين ، وإنما هو حيلة يتوصل بها إلى إباحة القرض والاقتراض بالفائدة الربوية ، وقديماً وحديثاً ودائماً نرى بعض من لا خلاق لهم يحتالون على الشريعة بحيل مختلفة تحلّ لهم ما يريدون مما حرّمه الله تعالى .

على أن حرمة هذا البيع وبطلانه ليس محل اتفاق بين الفقهاء . فهذا الإمام الشافعى — على جلالته ودينه — يجيزه لتحقق ركنه وهو الإيجاب والقبول ، ولا عبرة بالنية فى رأيه لأنه لا يمكن أن نتعرّفها على وجه يقينى ، وكذلك ذهب الإمام أبو يوسف من الأحناف إلى إجازته بلا كراهة ! وأجازه الإمام محمد بن الحسن مع الكراهة ، نظراً للنية الآثمة ، حتى قال فيه : هذا البيع فى قلبى كأمثال الجبال ، زميم ، اخترعه أكلة الربا . ولا ندرى لم أجازه وهو يراه كما وصف ! و فى رأى الإمام أبى حنيفة نفسه أنه عقد فاسد إن لم يتوسط فيه ثالث بين صاحب المال والمقترض(١) .

أما ابن حنبل وكذلك الإمام مالك ، فيريان هذا البيع باطلا ، وأنه حقاً احتيال على شرع الله ونص القرآن وسنة الرسول ، وهما يستدلان بهذا الحديث الذى روته العالية بنت أيفع بن شرحبيل ، إذ تقول(٢) :

« دخلت أنا وأم ولد زيد بن أرقم وامرأته على عائشة رضى الله عنها ، فقالت أم ولد زيد بن أرقم إنى بعت غلاماً من زيد بن أرقم بثمانمائة درهم إلى العطاء ، ثم اشتريته

---

(١) راجع المغنى لابن قدامة ، جـ٤ : ١٧٤ ؛ الدر المختار وحاشية ابن عابدين ، جـ٤ : ٢٥٥ — ٢٩١ ؛ فتح القدير على الهداية ، جـ٥ : ٢٠٧ — ٢٠٩ .

(٢) راجع المغنى ، جـ٤ : ١٧٤ — ١٧٥ ؛ الشرح الكبير للدردير مع الحاشية جـ٣ : ٩٩ نيل الأوطار ، جـ٥ : ٢٠٦ ؛ القرطبى ، جـ٣ : ٣٦٠ .

بسبعمائة درهم (حالة طبعاً) ، فقالت بئس ما شريت وبئس ما اشتريت ! أبلغي زيداً بن أرقم أنه قبل أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يتوب » .

ونحن نرى أنه لا معنى مطلقاً لتجويز مثل هذا البيع حق وإن اعتبرناه مكروهاً ، لأنه كما قلنا ليس إلا احتيالا على شرع الله ورسوله . وبخاصة وأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها لا تقول هذا القول الغليظ ، التى ساقته مساق الوعيد لزيد بن أرقم ، إلا عن علم ومعرفة من الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم ، لنا أن نضيف لهذا الحديث حديثاً آخر رواه أبو داود وغيره من أصحاب مجاميع الحديث ، وهو كما جاء ببعض الروايات عن ابن عمر رضى الله عنهما : «إذا ضنّ الناس بالدينار والدرهم ، وتبايعوا بالعينة ، واتبعوا أزناب البقر ، وتركوا الجهاد فى سبيل الله ، أنزل الله بهم بلاء فلا يرفعه حتى يراجعوا دينهم » .(١)

نحن نرى هذا الرأى ، مع ما نعرفه من أن كثيراً من الفقهاء الأحناف وغيرهم قد أجازوا غير قليل من الحيل فى المعاملات وغيرها — وقد أطال ابن تيمية وابن القيم فى كثير مما كتبا فى الرد على الذهاب هذا المذهب — ولكن هذا البيع تحايل واضح على تحليل التعامل بالربا الذى أوعدنا الله بالحرب عليه ، فليس لمسلم مؤمن بالله وكتابه والرسول وسنته أن يغمض العين أو يتسامح فى هذا الباب .

وقديماً ، فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان بعض المعاملات الربوية تخفى على بعض الصحابة ، فكانوا يجدون من الرسول ما يهديهم وجه الحق ، وفى هذا يحدث أبو هريرة وأبو سعيد الخدرىّ أن الرسول بعث أخا بنى عدى الأنصارى فاستعمله على خَـيْـبرَ ، فقدم بتمر جنيب . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أ كلّ تمر خيبر هكذا ؟ قال : لا يا رسول الله ، إنا لنشترى الصاع بالصاعين من الجمع . فقال الرسول : لا تفعلوا . ولكن مِثلا بمثل ، أو بيعوا هذا واشتروا بثمنه من هذا ، وكذلك الميزان (٣) .

ولكن ، ما عذرنا نحن بعد هذا الإيضاح النبوى ، وهو كاف شاف ! وبعد ما رأينا من الكوارث التى نزلت بالثروات الخاصة والعامة من إجازة التعامل بالربا ! والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

---

(١) شرح النووى على مسلم ، ج٤ : ٥٧ . والتمر الجنيب نوع من أعلا أنواع التمر ، والجمع نوع ردىء منه .

مذكرات الأمير عبد الكريم الخطابي

[يعيش في مصر الآن رجل لايعرفه المصريون ، وقل من يعرفه من المسلمين ... إنه الأمير « عبد الكريم الريفي » بطل من أبطال الإسلام في القرن الرابع عشر الهجري ... صمد أمام أسبانيا وفرنسا سبع سنين ، في حرب دامية أصلاهم فيها نارا ... ولم تكن حربا بدائية على ظهور الخيل والجمال وبالسيوف والحراب ، ولكنها حرب ضد مائتى ألف من الأسبان وحدهم ، قال عنها المارشال بيتان « الحقيقة الراهنة أننا هوجمنا عن غير استعداد من أكفأ عدو لاقيناه في حروبنا الاستعمارية ، وأن الرأس التي تدبر خططه رأس قوية ذات حزق ومهارة !! » .

وهذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها الأمير ، وقد آثر بهذا الفضل مجلة « المسلمون » لأنها كما قال سموه مجلة الإسلام في هذا العصر ، ولعلها بذلك تصحح كل مانشر محرفا عن جهاد الريف .

جزاه الله خيراً وتقبل منه]

التحرير

في ركن وادع من بيت الأمير محمد شقيق الأمير الكبير جلست إلى البطل المجاهد « عبد الكريم » . . ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي أجلس فيها إليه ... ولكنه كان فيها جديداً عليّ ، شأنه في كل مرة ألقاه ، فإن روعة الحق الذي يملأ جوه ، وجمال الماضي الأبيض الناصع من وراء لسانه وعينيه ، يجملانك تكبره وتحبه ، وتزهد في كل شيء سوى الحق والنور ومجد الإسلام .

ما أكثر ما ألف كتاب الغرب عن عبد الكريم ، وما أقل مايعرف المسلمون عن عبد الكريم . . .

ذهبت إليه أرجوه ليكتب عن جهاد سبع سنوات كاملة حمل لواءه وتقدم صفوفه ، فإذا هو يدفعني عن نفسه كأنه يخشى في رجائي لدغة ثعبان !

— جهاد ؟ .. جهادي أنا ؟ أنا جاهدت ؟ .. ودمعت عيناه دمعة صدق وحياء من الله ، وأردف يقول في صوت مشرق : إنه الله وحده الذي فعل كل شيء ، ومن قال لك غير ذلك فقد كذب ، والله كذب . كذب . كذب .. وفاضت دموعه . .

وما زال به الأخ الحبيب أحمد بن سودة يزوره مرة ومرة ليقنعه بفائدة الكتابة للمسلمين ، وبأن حديثه عن جهاد الريف حديث لنعمة الله عليه وعلى إخوانه .

حتى شرح الله صدره ووافق أن يحدثنا بما يستطيع من ذكريات أيام الله فى مراكش ، أما الذى لايستطيع ذكره اليوم فإنه يعتذر عنه إلى يوم قريب . . . لأنه لايزال من حق القضية التى لم تحلّ بعد . . .

سن تجاوز السبعين ، ووجه حلو جلله شعر أشيب على روح نضره وعزم من حديد . . . وأعصاب تحترق لكل نازلة بالمسلمين فى الشرق والغرب . . . ومقياس ثابت للأمور فى كلمتين : الإيمان والسلاح ، من أية ناحية دلفت إليه وجدته عندهما لايقيس بغيرهما !

وإمارته ليست إمارة نسب ورثها وراثة ، وإن كانت قبيلته (ورياغل) لها فى الريف الرياسة من قديم ، ولكنه أمير بمعنى « أمير المقاتلين الذى له البيعة واللواء » . .

تعلم فى جامعة القرويين ، وعين قاضياً فى ماليليا سنة ١٩١٠ ، ولكنه لم يستطع أن يحتمل تصرفات الأسبان المحتلين فعارضها وأصر على معارضته فزج فى السجن سنة ١٩١٥ ولبث فى السجن أحد عشر شهرا . . خرج بعدها إلى بلده يدبر أمرا ، وكان قدوته فى ذلك والده رحمه الله الذى أنذر الأسبان بالحرب إذا لم يكفوا عن العدوان ، فلم يكفوا ، فشرع يحاربهم ، وأخذ لذلك بعض عدته من التنظيم . ولكن لأسبان دسوا له السم غدرا فى طعام فمات فجأة بعد مرض قصير . فحمل عبد الكريم اللواء بعد أبيه . . .

ولم تكن محاربة الأسبان أمراً هيناً ، فإن عمرهم فى الريف حينذاك : أى فى سنة ١٩٢٠ كان قد أوفى على أربعة قرون ، بدأوها باحتلال جزر على الشاطىء الشمالى من مراكش مثل شفارنيس ولنكور (الأوسيمس) وبين هذه وبين بيت عبد الكريم ٢٤٠٠ متر (وقد هدم الأسبان هذه الدار ولم يبقوا لها أثرا) ، ومثل شبه جزيرة ماليليا ، ثم احتل الأسبان تطوان سنة ١٨٦٠ وانسحبوا منها بشروط قاسية ، وأخيراً دخلت جيوشهم سنة ١٩٠٩ . . .

اجتمع عبد الكريم مع ستة من رفاقه الأمناء وبدأوا يدبرون أمرهم . . . وفى ليلة غراء خرجوا إلى « قامه » وهى جبل يشرف على أنوال حيث تجتمع قوات العدو ، والتقت أيديهم فى قسم مقدس على الموت فى سبيل الله . . . وبدأوا يستدعون رؤوس القبائل واحداً بعد واحد ، وكل قادم يقسم معهم قسم الموت . . . و يعلم التيمم والسلاح ويجلد إذا ترك صلاة . وما إن اكتمل العدد اللازم حتى قرر أولو الأمر فيهم أن تبدأ المعركة . . .

« يتبع »

أم أيمن

هاجرت رضى الله عنها من مكة إلى المدينة لتدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم . .
هاجرت ماشية ليس معها زاد ، صائمة فى يوم شديد الحر ، وحر الرمضاء قاس أليم . .
كأنها لم يطفىء غلة قلبها الكبير أن تفر إلى الله من الأهل والعشيرة والدار ، فلجأت إلى الصوم تفر به من كثافة جسدها الضامر ، وتعرج إلى رحاب قدس الله طائرة على جناحين من جوع وعطش ، لايصحبها إلا حفيف جناحيها . . . ونور سرها المشتعل !

رويدك يا أم أيمن ! . . رويدك مجاهدتك لنفسك وشدتك عليها ، فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، والحر يهلك الرجال ! !

ولكن . . . أين أم أيمن ، لتسمع ؟ أين هى من كل ماحولها ؟ إنها فى نشوة من سرها ، وفى غمرة مما ترى هى وتسمع ! !

رباه . . . إنها خرجت فرارا إليك ، لم يفتنها عنك شىء سواك ، ولم يشغلها من الناس أحد غير « محمد » . . . شغلها لأنك أرسلته ؛ وخرجت إليه لتلقى أمرك عنده وتسعى فى قافلته ! إلى رحاب قدسك .

رباه . . . أنت وحدك لها . . . لأنها لك وحدك ! .

وعطشت « أم أيمن » بالروحاء عطشا شديداً ، كادت أن تموت من شدته . .

تقول رضى الله عنها « : فلما غابت الشمس إذا أنا بحفيف شىء فوق رأسى ، فرفعت رأسى فإذا بدلو من السماء مدلى برشاء أبيض ، فدنا منى حتى إذا كان حيث أستمكن منه تناولته فشربت منه حتى رويت . . . فلقد كنت بعد ذلك اليوم الحار أطوف فى الشمس كى أعطش ، وما عطشت بعدها ! »

هكذا أقبلت على ربها . . . . فأقبل عليها « وإن الله لمع المحسنين »

* * *

روى أنس ، لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أبو بكر لعمر ، مر بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله يفعل . . . فلما رأتهما بكت ، فقالا لها مايبكيك قالت : إنى لأعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدصار إلى خير مما كان فيه . ولكنى أبكى لخبر السماء انقطع عنا . . » فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها . . . .

سلام على أم أيمن فى الصالحات .

التشريع الجنائى الإسلامى

للأستاذ عبد القادر عوده

أركان السرقة

الركن الأول : الأخذ خفية

(٦)

التعاون على الإخراج : الأصل أنه لا يعتبر آخذاً خفية إلا الشخص الذى يخرج الشيء المسروق من الحرز سواء حمله إلى خارج الحرز أو رماه إلى الخارج . ولكن الكثيرين من الفقهاء يعتبرون كل من يعاون على إخراج المسروق آخذاً خفية وإن كان بعضهم لم يحمل ولم يخرج شيئاً لأن الحمل والإخراج يعتبر حاصلا منهم معنى لا مادة .

وفى اصطلاح هؤلاء الفقهاء أن المعين على إخراج المسروق هو من يعين السارق على إخراج الشيء المسروق من الحرز سواء كانت الإعانة مادية أو معنوية .

وهم يلحقون المعين على السرقة بمن يباشر السرقة ويعطونه حكمه لأن السارق لا يسرق وحده غالباً وإنما يتعاون مع غيره ، فلو جعل المباشر وحده آخذاً خفية لشجع ذلك على السرقة ولأفلت الكثيرون من عقوبة القطع ، أو كما يقولون لانفتح باب السرقة وانسد باب القطع [١] .

والفقهاء الذين يلحقون المعين بالمباشر متفقون على أن المعين الذى يعتبر آخذاً خفية هو الذى يعين فى إخراج الشيء المسروق من الحرز لأنه بذلك يعتبر مخرجا له . فإن كان العون فى غير ذلك كاشتراك فى النقب أو كسر البـــاب أو فتحه بمفتاح مصطنع أو مساعدة الداخل على تسلق الحائط للدخول فى الحرز أو مساعدة فى حمل المسروقات بعد إخراجها من الحرز فإن فاعل هذا وأشباهه لا يعتبر آخذاً خفية فلو اتفق اثنان على سرقة منزل وتعاونا على نقب الحائط ثم دخل أحدهما وبقى الآخر فى الخارج يرقب الطريق وأخرج الداخل المسروقات من الحرز مرة بعد أخرى دون أن يستعين بزميله ، وبعد إخراجها تعاونا على حملها فالداخل وحده هو الآخذ

---

(١) بدائع الصنائع ج ٧ ص ٦٦

خفية وعليه القطع . أما الخارج فلم تتوفر فيه شروط الأخذ خفية وعليه التعزير لأنه لا يعتبر معينا على الإخراج ما دام لم يتعاون مع المباشر فى إخراج الشىء المسروق من الحرز .

ومع أن الكثيرين من الفقهاء يلحقون المعين بالمباشر إلا أنهم اختلفوا فى الأفعال التى تعتبر إعانة بحيث لا يتفق مذهب مع آخر فى تحديد هذه الأفعال وسنستعرض فيما يلى آراء فقهاء المذاهب المختلفة :

فمالك يرى أن المعين على الاخراج قد تحدث منه الإعانة وهو فى خارج الحرز وقد تحدث منه الإعانة وهو فى داخل الحرز ، فأما الاعانة من خارج الحرز فمثلها أن يضع الداخل المتاع المسروق فى وسط النقب ومد الخارج يده لأخذه فتجتمع أيديهما فى النقب بموضع لم يخرجه الداخل من الحرز ولم يخرجه الخارج من الحرز وإنما هو بين بين فإذا تناول الخارج المتاع على هذا الوجه فهو معين على إخراجه لأن فعل كل منهما لم يستقل بإخراج المسروق ولأن فعل كل منهما جاء مصاحبا لفعل الآخر . ومثل الإعانة من الخارج أيضا أن يربط الداخل المتاع بحبل فيجره من فى الخارج فإذا فعل الخارج ذلك فهو معين على الإخراج .

فالقاعدة إذن عند مالك أن الخارج يعتبر معينا على الاخراج إذا كان فعل الداخل لا يجعله مستقلا بالاخراج وإذا تصاحب فعلاهما فى حال الاخراج [1] .

أما الاعانة من داخل الحرز فتكون بالتعاون فى حمل المسروق إلى خارج الحرز أو بالتعاون فى تحميله على أحد السارقين أو بعضهم أو فى تحميله على دابة وبشرط أن يكون هذا التعاون ضروريا كأن يكون المسروق ثقيلا فلا يستطيع إخراجه إلا كثيرون أو لا يستطيع حمله شخص واحد إلا أن يضعه عليه واحد أو أكثر فإن كان المسروق خفيفا فحمله واحد فخرج به وهم معه أو أعانوه على حمله وهو يستطيع حمله دون إعانة كالثوب والصرة فلا إعانة لأن التعاون على الاخراج ليس ضروريا وفى هذه الحالة يعتبر من حمل المسروق فأخرجه آخذاً له خفية وهو وحده الذى يقطع أما من عداه فعليه التعزير .

وإذا اقتضى إخراج المسروق التعاون فى حمله لإخراجه فالحاملون جميعا مباشرون للسرقة ما دام أنهم قد حملوه حتى أخرجوه من الحرز فإذا حملوه فوضعوه على شخص منهم أو على دابة فالمباشر هو المخرج والباقون معينون وفى هاتين الحالتين يكفى لاعتبارهم جميعا آخذين خفية مستحقين للقطع أن تبلغ قيمة المسروق نصابا واحداً .

(١) شرح الزرقانى ثامن ص ١٠٦ — المدونة جـ١٦ ص ٧٣

وإذا اشترك كثيرون فى إخراج المسروقات من الحرز ولم تكن هناك ضرورة للتعاون وإنما أخرج كل منهم شيئاً يحمله وهم شركاء فى كل ما خرجوا به ، فالمخرجون جميعاً مباشرون ولا يقطع منهم إلا من بلغت قيمة ما أخرجه نصابا ويعذر من أخرج دون النصاب .

ولا يعتبر معينا عند مالك من يدخل الحرز أو يبقى فى خارجه دون أن يأتى عملا ماديا يشترك به فى إخراج المسروقات على الوجه الذى سبق بيانه فمن وقف داخل الحرز ليحمى حامل المسروقات أو ليمنع السكان من الحركة أو الاستغاثة أو ليرشد اللصوص على مكان الحلى والنقود فإنه لا يعتبر مباشراً ولا معينا ، ومن ثم فلا قطع عليه وإنما عليه التعزير (١) .

ويشترط أبو حنيفة لاعتبار الشخص معينا أن يدخل الحرز فإن لم يدخل الحرز فلا يعتبر معينا ولو ساعد فعله على إخراج المسروقات من الحرز وهو فى رأيه هذا يطبق نظرية هتك الحرز هتكا متكاملا .

والمعين فى مذهب أبى حنيفة هو من دخل الحرز مطلقا سواء أتى عملا ماديا عاون به على إخراج المسروقات كأن وضعها على ظهر آخر فأخرجها الآخر أو أتى عملا معنويا يساعد على إخراج المسروقات من الحرز كوقوفه للحراسة أو لمنع الغوث أو للاشراف على نقل المسروقات من الحرز ، ويعتبر وجوده داخل الحرز إعانة معنوية على إخراج المسروقات من الحرز ولو كانت الحالة لا تقتضى وجود المعين (٢) .

على أن الاعانة لا يجب فيها القطع عند أبى حنيفة إلا إذا خص كل مباشر وكل معين نصابا فإذا كانت قيمة ما أخرج لا تكفى ليصيب كل منهم نصابا فلا قطع وإنما التعزير (٣) .

وإذا اشترك جماعة فى سرقة فخرج كل منهم ببعض المسروقات وبعضهم يحمل ما قيمته نصابا فأكثر وبعضهم يحمل أقل من نصاب فعليهم القطع جميعا إذا كانت قيمة المسروقات فى مجموعها تكفى لأن يصيب كل منهم نصاباً وفى هذا يختلف مذهب مالك عن مذهب أبى حنيفة .

أما مذهب أحمد فيتفق مع مذهب مالك فى أن الإعانة قد تحدث من شخص خارج الحرز وقد تحدث ممن فى داخله ، كذلك يتفق المذهبان فى تحديد الإعانة من الخارج ولكنهما يختلفان فى الإعانة ممن فى الداخل .

ويتفق مذهب أحمد مع مذهب أبى حنيفة فى الإعانة من الداخل فيعتبر معينا

(١) شرح الزرقانى ج ٨ ص ٩٦ — المدونة ج ١٦ ص ٦٨ ، ٦٩

(٢) فتح القدير ج ٤ ص ٢٤٤ بدائع الصنائع ج ٧ ص ٦٦

(٣) فتح القدير ج ٤ ص ١٢٥ بدائع الصنائع ج ٧ ص ٧٨

عند أحمد كل من يدخل الحرز سواء أتى عملا ماديا كإعانة غيره على حمل المسروقات أم أتى عملا معنويا كمنع الغوث أو لم يأت عملا ما

وفى مذهب أحمد يقطع المعين والمباشر إذا بلغت قيمة ما أخرج نصابا واحداً ، وإذا اشترك جماعة فى السرقة فليس من الضرورى أن يبلغ ما حمله كل منهم نصابا بل يكفى أن يبلغ كل ما أخرجوه من الحرز نصابا واحداً لا غير ليقطعوا به هم ومن أعانوهم على الاخراج سواء من الداخل أو من الخارج ، وفى هذا يخالف مذهب أحمد مذهبى مالك وأبى حنيفة(١)

أما فى مذهب الشافعى فلا يعترفون بالإعانة من خارج الحرز ولا بالإعانة من داخله والمعين فى كل الأحوال عليه التعزير ولا قطع عليه .

ويقطع الشافعى المشتركين فى السرقة بشرطين : أولهما : أن يشترك السارق فى إخراج المسروق من الحرز كأن يكون شيئاً ثقيلا فيتعاون السراق على حمله لخارج الحرز أو أن يكون المسروق أشياء ، متعددة فيحمل كل منهم شيئا فمن أخرج منهم شيئا خارج الحرز فهو سارق . ثانيهما : أن يخص كل من السارقين نصابا إذا وزعت عليهم قيمة ما أخرجوا بغض النظر عما أخرجه كل منهم ، فقد يخرج أحدهم نصابا أو أكثر وقد يخرج أقل من نصاب(٢) .

وإذا لم يشترك السارقون وكان كل منهم مستقلا فى فعله وقصده عن الآخر فالعبرة بما يخرجه كل منهم ، فمن أخرج نصابا قطع إذا توفرت الشروط الأخرى ومن أخرج أقل من نصاب لم يقطع(٣)

ويتفق مذهب الشيعة الزيدية مع مذهب مالك فهم يرون قطع المعين من الخارج أو من الداخل بنفس الشروط وعلى الكيفية التى يراها المالكيون(٤) .

هذا هو حكم الإعانة على الإخراج فى مختلف المذاهب ، وظاهر منه أن المعين على الإخراج يعتبر فاعلا أصليا للسرقة ويعاقب بالقطع كمباشر السرقة ، أما الشريك بالاتفاق أو التحريض أو المساعدة كما نعرفه فى القوانين الوضعية فلا قطع عليه ، وعقوبته التعزير ما دام أنه لا يعين على إخراج المسروق من الحرز ، والشريك على أحد هذه الوجوه يسمى فى الشريعة الاسلامية الشريك بالتسبب ، أما الفاعل الأصلى المشترك مع غيره فيسمى الشريك المباشر .

---

(١) المغنى ج ١٠ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ - كشاف القناع ج ٤ ص ٧٩

(٢) المهذب ج ٢ ص ٢٤٩ ، ٢٩٧ نهاية المحتاج ج ٧ ص ٤٢١

(٣) أسنى المطالب ج ٤ ص ١٣٨ ونهاية المحتاج ج ٧ ص ٤٢١

(٤) شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٦٦ — ٣٦٨

نهاية الخلافة العثمانية

ومستقبل الوحدة الإسلامية

للأستاذ الدكتور محمد ضياء الدين الريس

أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة

فى مارس عام ١٩٢٤ أعلن « مصطفى كمال » — الغازى كما كان يلقب فى بلاد الإسلام فى أثناء حربه مع اليونان و « أتاتورك » كما لقب نفسه واختار أن يدعوه بنو وطنه فيما بعد — أعلن إلغاء الخلافة ؛ ونفى آخر خليفة يجلس على عرش دولة « آل عثمان » وهو السلطان عبد المجيد الثانى ، فذهب إلى فرنسا حيث بقى بها إلى أن مات مغترباً فى خلال الحرب العالمية الأخيرة .

لم يكن هـذا الحدث فى ذاته — ولاسيما إذا نظرنا إليه من الوجهة التاريخية — أمرا هينا . فقد كان معنى ذلك أن رئيس دولة تركيا قد قرر إنهاء نظام ظل قائما ومستمرا فى بلاد الإسلام — فى هيئته الصورية على الأقل — نحو ثلاثة عشر قرناً . وقد كان حادث سقوط خلافة يعد فيما مضى من عصور تاريخ الإسلام أمرا جللا ، ويترتب عليه من النتائج السياسية والاجتماعية مايبقى أثره دهورا بعد ذلك ؛ ولم يكن هذا السقوط يتم بسهولة بدون إعلان حرب وإغارة جيوش وسفك دماء ؛ كما كان يسبقه تدبير سابق يستغرق سنوات . ولـكن سقوط هذه الخلافة فى الزمن الأخير « العثمانية » لم يكن مشابها لما حدث فى الأعصار السالفة ، فلم يقتض الأمر أكثر من إصدار قرار ؛ وأنزل الخليفة ونفى دون أن تطلق طلقة من مسدس أو تراق قطرة من دم . كما أن العالم الإسلامى لم يشعر بشىء من الرجة ؛ أو يعترى الشعوب فيه شىء من الذهول ؛ مع أن القرار الذى صدر لم يكن يرمى إلى استبدال خـلافة بأخرى ، ولـكن إلى إلغاء الخلافة بالمرة ووضع حد لهذا النظام كله . على أن من الإنصاف أن نقول إن هذا العمل أثار نوعا من الاحتجاج فى بعض الدوائر ، وسخط عليه البعض ، وبذلت محاولات فى السنوات التالية لحدوثه لإقامة خلافة جديدة مكان تلك التى ألغيت ، ولـكنها لم تنجح لأنها لم تجد تأييداً عاما ؛ كما أن الخلافة التى أديلت لم تعدم شاعراً

يرثيها ، فوجدته فى شخص أمير الشعر « أحمد شوقى » الذى عاش أكثر حياته فى جو عثمانى ؛ وكان دائم الولاء للخليفة ودولة آل عثمان . فنظم قصيدة طويلة قال فيها :

عادت أغانى العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت فى ليل الزفاف بثوبه ودفنت عند تبلج الإصباح
شيعت من هلع بعبرة ضاحك فى كل ناحية وسكرة صاح
ضجت عليك مآذن ومنابر وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة ومصر حزينة تبكى عليك بمدمع سحاح

ولم يكن الأمر تماما كما وصف « شوقى » ، فهذا من خيال الشعراء !

ثم قال :

ياللرجال لحرة موءودة قتلت بغير جريرة وجناح

وهذا يخالف الحقائق التاريخية كما هو جلى ، وكما سيتبين فيما بعد . فكم كان لها من جريرة وجناح ، ولكن أعذب الشعر — كما يقولون — أكذبه .

وقال أيضاً ، وفيه بعض الصدق :

حسب أتى طول الليالى دونه قد طاح بين عشية وصباح
وعلاقة فصمت عرى أسبابها كانت أبر علائق الأرواح
جمعت على البر الحضور وربما جمعت عليه سرائر النزاح
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم فى كل غدوة جمعة ورواح

والمؤرخ عنده تفسير سقوط هذه الخلافة العثمانية ، على هذا النحو الهين . فما منشأ هذه الخلافة أولا ؟ لقد سقطت الخلافة العباسية فى عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) على أثر اجتياح المغول بقيادة « هولاكو » التترى لبغداد ، فنزحت الخلافة فى صورة شكلية إلى مصر فى عهد « الظاهر بيبرس » من المماليك ، حيث بقيت يتوارثها أفراد من سلالة العباسيين إلى أن سقطت دولة المماليك على يد السلطان « سليم الأول » فتنازل له الخليفة العباسى الموجود عن الخلافة ، وبذلك انتقلت إلى « الأستانة » ؛ وذلك فى عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) فتكون الخلافة قد عاشت فى تركيا أربعة قرون كاملة وبضعة أعوام . على أن الذى حدث بالفعل أن رؤساء الدولة العثمانية كانوا يلقبون بالسلاطين لا « الخلفاء » وكأنما كانوا يؤثرون اللقب الأول ، وكان اللقب الآخر حين يرد فى المكاتبات يذكر على سبيل التحية أو المدح . كما أن بعض المؤرخين المحدثين أخذ يلقى ظلالا من الشك على واقعة التنازل هذه ويعمد إلى إثبات عدم صحتها . ومهما يكن

فإنه فى العهد الأخير للدولة : أى حينما بدا ضعفها ، وتفككت أوصالها ، وأحاط بها الأعداء من كل جانب ، وبالتحديد فى عهد السلطان « عبد الحميد » (١٨٧٦ — ١٩٠٨) بدأت الدعاية تنشط للخلافة .

وأخذ الكتاب والرجال الرسميون يصورون هذا العاهل على أنه « الخليفة » وتغنى الشعراء بمدحه — ومن بينهم شاعرا مصر شوقى وحافظ — وصاروا يحيون معانى الخلافة ويجددون ذكرياتها فى الأذهان . وكان هذا كله محاولة لتقوية الروح المعنوية فى الدولة التى كانت فى طريقها إلى الانهيار . ولإيجاد جبهة متحدة باسم الجامعة الإسلامية تستطيع أن تقف فى وجه الأمم الأوروبية التى كانت تغير على حدودها وتنتزع من أراضيها قطعة فأخرى . أى أن مظهر الخلافة قوى فى الوقت الذى ضعفت فيه حقيقة الدولة وكانت على وشك التحلل فالتمزق ، فكانت محاولة لستر الضعف وإخفاء الحقيقة ليس إلا . واسمع مثلا ماقال « حافظ » فى مدح السلطان عبد الحميد :

أيحصى معانيك القريض المهذب ... على أن صدر الشعر للمدح أرحب
لقد مكن الرحمن فى الأرض دولة ... لعثمان لاتعفو ولاتتشعب
بناها فظنتها الدرارى منازلا ... لبدر الدجى تُبنى وللسعد تنصب

وبعد عامين فقط من قول هذه القصيدة عفت دولة « عثمان » وتشعبت ، ونصبت للشقاء لا للسعد !

وما كان يقول «شوقى» وقد نظم أكثر من رفيقه ، وله فيه مطولات بل معلقات :

سما بك ياعبد الحميد أبوة ... ثلاثون حضار الجلالة غيب
نهضت بعرش ينهض الدهر دونه ... خشوعا وتخشاه الليالى وترهب
مكين على متن الوجود ، مؤيد ... بشمس استواء ، مالها الدهر مغرب !

وقد غربت هذه الشمس بعد بضعة أعوام ، ولم يبق الدهر كما توقع شوقى .

وقال فيه أيضاً :

هنيئاً أمير المؤمنين فإنما ... نجاتك للدين الحنيف نجاة
هنيئاً لطه والكتاب وأمة ... بقاؤك إبقاء لها وحياة
أخذت على الأقدار عهدا وموثقا ... فلست الذى ترقى إليه أذاة

ولابد أن الشاعر قد دهش دهشة أخاذة حين شاهد أن الأذاة . وماهو أخطر منها ، قد رقت إلى ممدوحه . وأنه لم يكن هناك بينه وبين الأقدار أى عهد ولاموثق ! على أن هذا السلطان لم يكن فى نظر التاريخ إلا طاغية مستبداً ، وكان عهده من-

أسوأ العهود التى مرت بها حياة الأمة الإسلامية ، وقد حكم أكثر من ثلاثين عاما فلم يكن لهذا الحكم من أثر إلا ازدياد تأخر الدولة ، واستفحال أدوائها ، وذهاب قواها إلى أن أشرفت على الفناء . ذلك لأنه كان يحارب كل نزعة إلى الحرية ، وكل دعوة إلى الإصلاح ، وكل حركة تهدف إلى الرقى وتبصير الشعوب بحقائق الحال . حارب « مدحت باشا » الرجل الإسلامى المصلح الذى أراد أن يقيم الحكم على أسس من الشورى ، وقضى على الدستور الذى وضعه ، وما زال به حتى نفاه ومات فى « الطائف » مسموما . واستدرج السيد « جمال الدين الأفغانى » حتى جاء به إلى الأستانة حيث أبقاه عنده شبه أسير فى قفص من ذهب ، وكمل بذلك القضاء على دعوته ، وشل حركته إلى أن مات بعد خمس سنوات فى هذا الأسر فى ظروف مريبة . وفى عهده أخذ الإنجليز « قبرص » أخذوها هدية منه فى عام ١٨٧٨ . ثم احتلوا مصر عام ١٨٨٢ — وكانت هذه أكبر كارثة وجهت إلى العالم الإسلامى منذ احتلال الغربيين لبيت المقدس فى عهد الحروب الصليبية — فلم يصنع شيئاً . ورضى « أمير المؤمنين » بالواقع ، وبقى الاحتلال . ثم استولوا على السودان أيضاً فظل ساكنا ولم يتحرك . وأتمت انجلترا وفرنسا مؤامرتهما باتفاقهما فى عام ١٩٠٤ على اقتسام بلاد الشرق الأوسط ، وبقى هو ساهيا فى غمرته : غمرة المظاهر والاحتفالات والبذخ والفخفخة التى يسمونها شرقية والتى يخدع بها العامة والسذج ، ويروج لها المنافقون والأتباع الكاذبون وأصحاب الأهواء والمصالح .

بالرغم من هذه المظاهر الكاذبة كانت الدولة إذن فى غاية الضعف ، وكانت الخلافة خداعا ، اسما على غير مسمى وإذا ألقيت نظرة على أحوال العالم الإسلامى فى ذاك العهد فماذا ترى ؟ ترى أن الهند المسلمة — وكانت تدين بالولاء الشعورى لهذا الخليفة على بعد الدار — كانت رازحة تحت كابوس الاستعمار الإنجليزى ، وأفغانستان شبه المستقلة وإيران الشيعية مسرحا للدسائس الاستعمارية بين روسيا وانجلترا ، ومصر قد دهمها الاحتلال البريطانى ثم السودان ، ولبنان صارت ولاية مسيحية منفصلة تحت حماية الدول ، وفرنسا فى الجزائر قد وثبت على تونس ، وأخذت تمد شباكها إلى مراكش ، والصهيونية أخذت تضع أول حجر فى بنائها فى فلسطين ، وقبرص صارت قاعدة فى يد بريطانيا وولايات البلقان قد تم انفصالها ، وأخذت تتكون دولا قوية مشبعة بروح العداء على حدود الدولة التى كانت تحكمها من قبل . وهكذا كانت الدولة مهددة بالزوال مشرفة على الهلاك ولكن فى نفس الوقت كان هذا السلطان أو الخليفة كما كان يسمى

نفسه يفرض عليها حكما استبداديا جائرا ؛ ويقذف معارضيه فى أعماق السجون أو البحار ويسوق الأحرار بسوط من نار .

فحين أعلن « مصطفى كمال » إلغاء الخلافة ووجه إليها ضربته القاضية كانت الخلافة فى الحقيقة قد انتهت قبل ذلك بوقت طويل : كانت قد دخلت فى النزع الأخير منذ عهد السلطان عبد الحميد ، وكانت مريضة مرض الموت دهراً طويلا منذ أوائل القرن التاسع عشر ، وكانت الدولة العثمانية معروفة بأنها « الرجل المريض » فى المجامع الدولية ، وتذكر على أنها كذلك فى الوثائق السياسية فعمل مصطفى كمال لم يزد على أنه كان بمثابة إصدار شهادة الوفاة أو مواراة التراب جثة كانت هامدة وفارقتها الروح منذ أمد طويل . ومن أجل هذا كان سقوطها هينا ، ولم يحدث فى العالم الإسلامى إلا ضجة مفتعلة ، وبعض مظاهر احتجاج من الطامعين الذين كانوا يودون أن يخلعوا على أنفسهم هذا اللقب الأجوف ، وربما أثارت أيضا شعورا من الأسى الحقيقى فى نفوس من لم يعرفوها على حقيقتها ، ولم يفكروا فى المآسى التى حلت بعالم الإسلام من جراء وجودها .

سقطت تلك الخلافة — إن جاز لنا أن نسميها هكذا — بسبب الاستبداد والطغيان والحكم الفردى ، وبسبب عكوف السلاطين والولاة على شهواتهم ؛ واستغلالهم لشعوبهم والانصراف إلى قضاء مصالحهم ، وإهمالهم ونسيانهم الواجبات الملقاة على عاتقهم . وبسبب سوء الإدارة وفساد النظام ، وقيام الحكم على أساس الرشوة والمحاباة ، وعدم تولى الأكفاء الحكم ؛ ولاستئثار « لانكشارية » بالنفوذ السياسى ، وتصرفهم فى كل شئون الدولة ، ولجعل الدولة غايتها الحصول على المادة ، وطرح الولايات والمناصب فى المزاد . وسقطت بسبب فشو الجهل ، وللجمود ، والانطواء على الذات وعدم الاتصال بالعالم ، والعجز عن فهم روح العصر ومجاراة سنن التقدم ؛ والنظر إلى الشعوب كأنها سوائم تساق بعصا الغلبة ، فانغمست فى الجهل ، ولم يفهم الفرد حقوقه ولا واجباته ، وعدم وجود سياسة للانتاج أو خطة للتعمير ، فلم يكن هناك غير الاستهلاك والسلب والانتهاب .

ويمكنك أن تقول ، بعبارة أخرى شاملة : إن الدولة سقطت لأن الحكم فيها لم يكن إسلاميا ، وانتهت الخلافة لأنها لم تكن خلافة أصلا . ولم يكن لها من تلك الحقيقة الرائعة إلا الاسم . فالخلافة الإسلامية إنما تقوم على أساس الشورى بطريق البيعة الصحيحة ، ولا تبقى إلا برضا الأمة ولكن الدولة العثمانية قامت على أساس السيف والقوة ، وبقيت سواء أرضيت الأمة عنها أم لم ترض . وانتقل الحكم فيها بالوراثة

من سلطان إلى آخر . ولـكن الإسلام ليس فيه وراثة ، وإنما ينتقل الحـكم من الـكفء إلى الـكفء ، الـكفء الذى تنتخبه الأمة وترضاه وتظل مواليه له وهى تراقبه . فالوارائة تؤدى إلى أن يخلف السطان القوى بغـشل ضعيف ، كما حدث إذ خلف السلطان سليمان القانونى ابنه سليم الثانى وكان سكيرا لاهيا ، وقد يخلف السياسى الذكى بغبى أحمق . وتؤدى أن تحـكم الأمة بالصبيان بل الأطفال الرضع ، ويشرف على أمورها النساء ، وتفرخ فيها الدسائس ، ويتسلل إليها الأعداء عن هذا الطريق . والخلافة الإسلامية تقوم لأداء واجبات معينة لا لخدمة المنافع الذاتية لشخص الوالى أو الحاكم ، وتعمل دائما وفى كل حالة لصالح الأمة العام ، وتلتزم بالواجبات الأخلاقية ، وتحفظ القيم الروحية ، وتصون تراث الأمة الثقافى والاجتماعى ، وتدأب للتعمير والإنتاج وتحقيق أسباب الرخاء ، وبالجملة تسعى إلى كل ما يزيد من قوة الأمة ويرفع شأنها ، وما ينهض بالفرد والجماعة ؛ وصورة الخلافة الشرعية الصحيحة هى التى كانت على عهد الخلفاء الراشدين ، فأين من هذا كله تلك التى كانت تسمى بالخلافة العثمانية ؟ وأين من العمل لهذه الغايات السلطان عبد الحميد وأمثاله ؟ كم ظلم الإسلام ، وكم ظلمت الخلافة إذا طلق اسمها على نقيضها الجافى لها تماما !

لهذا لا يحق لنا أن نأسى أو نذرف دمعة — كما زرف الشعراء التقليديون أو المخدوعون — على تلك الخلافة الاسمية أو الزائفة التى زالت وانقرضت منذ أكثر من ربع قرن . ولـكن هناك مع ذلك حقيقة هامة يجب أن ننبه إليها ، وهذه الحقيقة هى التى لمحها الشعراء ، وهى التى تبرر شعور الحزن الذى شعروا به وحاولوا أن يعبروا عنه ، وهى التى تفسر ماظهر من أسى فى بعض الدوائر الإسلامية كما تجلى بين مسلمى الهند لزوال هذا النظام الذى استمر قرونا . تلك الحقيقة هى التى جعلت الخلافة حتى حين تحولت وذهبت حقيقتها ، ولم تعد إلا مجرد صورة أو شكل ، بل حين صار اسمها من أسماء الأضداد ، جعلتها مع كل ذلك عزيزة مهابة ، ذات مكانة فى نفوسهم ، وتخفق لها قلوبهم . وذلك لأن الخلافة ، أو هذا النظام فى أية صورة ، كان يمثل معنى من أسمى المعانى فى نفوس المسلمين ؛ وكان رمزا لغاية أو هدف يحرص المسلمون كل الحرص على الاحتفاظ والتشبث به . هذا المعنى وهذا الهدف هو وحدة المسلمين والتئام صفوفهم ، وتضافر قواهم واجتماع شملهم . فالوحدة فريضة قد أوجبها الله على المسلمين ، وقد نصت عليها الآيات وحثت عليها الأحاديث ، وتؤكد مصلحة الأمة الإسلامية بل تدعو إلى ذلك ضرورة بقائها وحفظ كيانها أن قوتها فى وحدتها وأنها تظل سليمة عزيزة الجانب

ما بقيت متحدة . أما إذا انحلت عراها وتفرقت إلى دول منفصلة — تفكر فى مصلحتها الذاتية فقط — أو أحزاب ، فإنها حينئذ تصبح مرمى لسهام الأعداء ويصبح من السهل أن يغير عليها هؤلاء الأعداء فيلتهموها واحدة بعد الأخرى . فالخلافة — حتى فى أسوأ صورها — كانت تحقق معنى الوحدة إلى مدى بعيد . وهذا كان أكبر دعامة وأقواها فى بنائها حتى حينما تزعزت باقى الدعائم . بل إن الدولة العثمانية ماقامت وازدهرت ، وبسطت أجنحتها على الأقطار الإسلامية فى الشرق الأوسط ، وبقيت قرونا بعد ذلك إلا على هذا الأساس . فقد كان المسلمون يتطلعون إلى هذا النظام على أنه رمز الوحدة ، وعلى أنه هو الذى يعبر وينطق بأنهم أمة واحدة . وكان هذا النظام فى أوقات قوته ، حينما كان يرأسه رجال مصلحون وقواد عظام ، كما حدث فى عهد محمد الفاتح ، أو سليمان القانونى ، أو مراد الرابع ، كان يحقق للأمة كثيراً من المعانى التى تنشدها فى الخلافة الصحيحة . فكان يحافظ على كيانها ويدافع عن استقلالها ويرد الأعداء عن أراضيها ، ويذب عن عقائدها ، ويصون مقوماتها ، كما أن الأمة كانت لاتبخل عليه أيضاً بأن تؤيده بكل قواها ، وتبذل فى سبيله مافى وسعها . فكانت هناك عصور عظيمة صعدت الأمة فيها إلى أوج المجد ، وكان الأعداء يهابونها ويتزلفون إليها صاغرين . وارتجفت تحت أقدام الجيوش الفاتحة عواصم أوروبا ، وقد باتت كلها فى ذعر وبقيت كذلك قروناً .

فمعنى الوحدة – أى الوحدة السياسية والدفاعية بين جميع المسلمين — هو المعنى العزيز والوحيد الذى يجب أن يأسى قلب كل مسلم لاختفائه بزوال الخلافة . وكيف يستطيع المسلمون أن يعيشوا وهم متفرقون دولا وجماعات ، كل يبحث عن صالحه ولا رابطة تجمع شملهم ولا هيئة أو نظام يوحد قواهم ؟ إن التفرق هو باب الضعف والطريق إلى الاضمحلال فالفناء ، والاتحاد هو سبيل القوة والعزة والمجد . وهاهى ذى « فلسطين » قد انتزعت من قلب البلاد الإسلامية ، وشرد أهلها فذهبوا على وجوههم هائمين ، بسبب الفرقة والخلاف وعدم تضافر الجهود ، فمأساتها تنهض أصدق دليل على صحة هذه القاعدة . ولايكفى مجرد وجود الوحدة فى الشعور أو فى التفكير النظرى ، بل لابد أن تتحقق الوحدة وتظهر فى صورة عملية ، فى صورة نظام سياسى وحربى جديد . فهذا هو الفراغ الموجود فى حياة الأمة الإسلامية الآن . وقد أردنا أن نستعيد بعض ذكريات الدور الأخير للخلافة العثمانية لننبه إليه . وإن مستقبل العالم الإسلامى يتوقف على ملء هذا الفراغ ، فإذا كان هذا العالم قد استطاع أن يبقى أربعة عشر

قرنا إلى الآن فإنما كان ذلك بفضل وجود الوحدة ، فى صورة أو فى أخرى . وإن العالم الغربى فى هيئة الاستعمار يقف متكتلا متحدا ضده ، ويتعاون على تصديع وحدته والقضاء عليه . فالدول الغربية تضافرت لتقيم دولة اسرائيل ، وتؤيد فرنسا فى الفتك بالمسلمين فى تونس والجزائر ومراكش ؛ وبالجملة تتبادل المنافع وتتعاون فيما بينها على العدوان على أوطان الإسلام وشعوبه . ولا يغفل عن هذا إلا جاهل أو غبى أو نعامة تخفى رأسها فى الرمال أو تحت جناحيها . والعالم كله يسير اليوم نحو التكتل لا التفرقة . وظاهر أن المستقبل لن يكون للأمم الصغيرة أو الدول التى تعيش عيشة محلية وتظل آسنة فى بركتها .

فإذا كانت الخلافة أو السلطنة العثمانية قد انتهت ، ومضى على انتهائها أعوام ، فقد انتهت من قبلها خلافات ودول أخرى ولكن سر قوة الإسلام كانت دائما فى وحدته ، وسر بقاء شعوبه ، كان دائما فى تضامنها فإذا تفرق يوما كان دائما عند الخطر يعود إلى الوحدة . فالعالم الإسلامى بحاجة اليوم إلى نظام سياسى ودفاعى جديد . وفى وجه الاستعمار والخطر الدائم من جهة الغرب — الذى هو مسئول عما يرزح فيه اليوم من فقر وجهل وضعف ، وما يعانيه من أحزان وفواجع — فى حاجة إلى رجل موحد للشمل كصلاح الدين ، وتكتل متين كذلك التكتل الرائع الذى صد به الغربيين فى الحروب الصليبية ، تكتل فى أسلوب حديث ، وبأدوات جديدة وأسلحة جديدة للحرب والسلم ، ترد به عدوانهم فى حربهم الصليبية الجديدة التى ما فتئوا ولا ينون يشنونها علينا ونحن لاهون .

العـــدد القادم

سيصدر العدد القادم بإذن الله فى العاشر من شوال كما فعلنا فى العدد الماضى ، ونسأل الله أن يعيد العيد السعيد على المسلمين وهم أرضى لله وأحسن حالا وأوفر كرامة .

« اللهم آمين »

هل علمت ؟

● أن عدم إحكامك قفل الصنبور بحيث تنزل منه قطرة ماء كل ثانية يضيع عليك ٧٠٠ جالون ماء فى السنة ! !

● أن قتل الحشرات التى تعيش على جلود الأبقار وتضايقها يزيد فى لحمها نصف رطل يومياً ويزيد ما تنتجه من اللبن من ١٠ إلى ١٥ ٪ يومياً .

● أن كمية الحرارة التى تنبعث فى الساعة من أجسام ثلاثين طفلا فى حجرة الدراسة تكفى لتحويل ٧ جالون ماء مثلج فى درجة الصفر إلى ماء يغلى ! !

● أن فى العالم ٨٠ مليون جهاز تليفون .

● أن فى غينيا الهولندية طريقاً معبداً بأخشاب المهوجنى الفاخرة ومغطى بطبقة من أكسيد الألومنيوم ويرجع ذلك لتوفر هذه المواد هناك .

● أن فى أمريكا نوعاً جديداً من البطيخ مرن الجلد حتى إنه إذا سقط من ارتفاع على سطح الأرض لم يتحطم وبذلك يسهل نقله إلى كل الأماكن .

● أنه يمكن صناعة نوع من الجبنة من قشور بذرة القطن .

● أن جميع أنواع الطاقة التى يستهلكها العالم كله فى سنة كاملة تساوى كمية الطاقة التى تصلنا من الشمس فى ثلاث دقائق .

● أن أغلب الدجاج فى مختلف أنحاء العالم مصاب بمرض القلب وأن ٧٠ ٪ من الدجاج الذى لا يزيد عمره عن سنة واحدة مصاب بتصلب الشرايين وتمدد الأوردة .

● أن هناك ما يقرب من عشرة أطنان من الميكروبات تعيش فى كل فدان واحد تقريباً من سطح الأرض حتى سمك ٢٠ سم .

● أن رطلين من الصلب كافيان لصناعة سلك طوله ٣٠ كيلو مترا يكفى لصنع رقاصات تكفى ٣٠٠ ألف ساعة .

● أن ما ينتجه العالم من الأسمنت فى العام الواحد يكفى لتمهيد طريق حول العالم عرضه ٤٥ متراً وسمك طبقة الأسمنت فيه ٢٠ سم .

● أن سرعة ظهور الأسنان للطفل تنبىء عن سمنته فى شبابه ذكراً كان أم أنثى .

● أن التدخين هو المسئول الأول عن الإصابة بسرطان الرئة وكذلك أمراض القلب والأوعية الدموية ، وتدخين سيجارة أو اثنتين يسبب تدفق هرمون الغدة الدرقية فى الدم بكميات تسبب تقلص الأوردة الدموية ولا يمكن للكحول كما يظن بعض الناس التغلب عليه .

وأن نشاط الغدد الذى يحرض الرجال والنساء على الاستمرار فى التدخين يسبب سرطاناً فى الرئة أكثر مما تسببه مادة التبغ نفسها ، ويقول الدكتور بريان ليدز أستاذ الجراحة بجامعة جورج واشنطن « إن التدخين المستمر هو السبب الأصلى لازدياد نسبة الإصابة بمرض سرطان الرئة »

● أن الدكتور دافيد كلاسون وجد أن فيتامين (ج) الموجود فى البرتقال والطماطم أفاد تماماً فى علاج ٦٢ حالة حرق عالجها ، كما أنه يمكن استعماله كمرهم حتى للعيون بدون أدنى خوف فهو يخفف الألم ويقلل من كميات المورفين التى تستخدم للتخدير ، ويطهر فلا حاجة لاستخدام المطهرات ويمكن استخدامه على هيئة حقن أو أقراص تؤخذ عن طريق الفم ، ويستعمل كغرغرة بنسبة ١ ٪ فى ماء مالح لعلاج احتقان الزور والحلق ، كل هذا من الطماطم والبرتقال ! !

حول السياسات الاقتصادية

بقلم الأستاذ عيسى عبده إبراهيم

أستاذ إدارة الأعمال بكلية التجارة بجامعة إبراهيم

(١)

« حفلت أعداد هذه المجلة ببحوث قيمة فى الربا والفائدة ورأس المال وكذا السياسة الاقتصادية كما ينبغى أن تكون فى البلاد الإسلامية . ومن هذا المنبر الإسلامى العالمى أساهم بكلمات موجزة ، هى فى حقيقتها دعوة للوصول بهذه الأبحاث إلى توصيات عملية » .

شهد الغرب فى القرن التاسع عشر وما انقضى من القرن العشرين نهضة صناعية قلبت الأوضاع ، ومهدت لتقدمه والسير باقتصادياته شوطاً بعيداً ، مكن له من فرض سياسة غاشمة على كل من آسيا وأفريقيا . وجرى الغرب على تسمية سياسته بأسماء شتى منها نشر المدنية الأوروبية ، ومنها قولهم بضرورة الدفاع عن حقوق العالم الحر . وأحياناً يتواضعون فلا يدعون ممارسة الحقوق ، بل القيام بتبعات الرجل الأبيض نحو غيره من الأجناس .

وإذا كنا نخص بالذكر هذه الحقبة الأخيرة من الزمن وهى نحو ١٥٠ سنة فما ذاك إلا لتوافر عوامل شديدة الأثر ، لم تكن معروفة للجنس البشرى من قبل ، وكلها فى مجال الماديات . مثال ذلك : الكشف عن قوة البخار والكهرباء وآلات الاحتراق الداخلى ، وما صحب هذه الكشوف من تسخير القوى فى الإنتاج ، وفى محاولة الاستئثار بطيبات الأرض وبأسواقها جميعاً .

أما النزاع بين الغرب والشرق فيرجع إلى تاريخ أبعد من ذلك كما هو معلوم ، وإذا أردنا أن نرد أسباب الخلاف القائم فى الوقت الحاضر بين الغرب والشرق إلى تاريخ لا يذهب بعيداً أكثر مما يجب ، لتعيين القول بأن الحروب الصليبية (التى كانت فى الواقع حروب تجارة) تعتبر بداية هذا النزاع المتجدد ، الذى تدرج فى حدة بالغة من أواخر القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر ، ونحن اليوم نصطلى بناره ، حتى يأذن الله للشرق بنهضة مستنيرة ، يتخذ فيها الأسباب الفعالة المحافظة على مدنيته وعلى موارد الطبيعة التى اكتنزتها أرضه ، فأهملها ، وكان هذا الإهمال من أهم أسباب الشقاء الذى عاناه فى هذين القرنين الأخيرين .

ولقد تعرض لهذه المسائل الاقتصادية بعض حضرات الفضلاء من رجال الشريعة السمحاء ، وبعض آخر من حضرات الكتاب الذين أخذوا عن الغرب قسطاً من المعارف الحديثة . والذى يلاحظ فى هذا الخصوص أنه فى معظم الدراسات التى يتناولها رجال الدين ، نجد حرصاً بالغاً على النصوص والروايات والتفسير وترجيح قول على آخر ، وضروب شتى من علوم الكلام . ولا نزاع فى أن هذه البحوث تنبىء عن جهد عظيم وتفيض بعاطفة دينية قوية ، ولكنها كثيراً ما تترك الربط بين الأحكام الراشدة التى جاءت بها النصوص ، وبين الصور المتجددة لنشاط الشعوب بعد أن أخذت بما يسمى بالمدنية الأوروبية .

وأما الكتاب الذين لم تسمح لهم ظروفهم بالتعمق فى دراسة الثروة الكبيرة التى تركها السلف الصالح ، والذين وقفوا جهودهم على تتبع كتابات الغرب وألوان شتى من مدنيته ، فإنهم ينقلون فى كثير من الأحيان صوراً من تفكير الغرب ، ويحاولون أن يلائموا بينها وبين الأحكام المستقرة ، التى آمن بها الشرق وآلى على نفسه ألا يحيد عنها .

وهكذا يمكن لنا أن نميز فى يسر بين مدرستين ، ويمكن لنا كذلك أن نحس بالفراغ الفاصل بين هاتين الثقافتين . إلى حد أننا نجد كثيراً من البلاد العربية ، ومنها مصر ، تقف حائرة بين ما يدعو إليه كل فريق . من أجل ذلك تبذل المحاولات تباعاً فى سبيل سد هذا الفراغ ، لعلنا نخرج فى كل قضية معروضة للبحث ، برأى يحفظ لنا قداسة القديم ولا يحملنا على التخلف عن ركب الحضارة التى بهرت العالم بأضوائها .

الربا :

ولعل قضية الربا من أهم القضايا القديمة التى لا يكاد البحث فيها ينتهى إلا ليتجدد .. ولقد وقعت لى بحوث قيمة فى هذا الموضوع ، اطلعت عليها فى هذه المجلة وفى غيرها من المراجع ، ولكن عدداً من المسائل الجوهرية الوثيقة الصلة بموضوع الربا ، لا تزال فى حاجة إلى البحث المستفيض . وفى هذه العجالة سأكتفى بضرب الأمثال بمفردات شتى تستوقف النظر ، وتدل على أن حكمة التشريع الإسلامى قد كانت من تاريخ الرسالة المحمدية ، ولا تزال ، تأخذ بمجامع القلوب وتطالع العقول بجديد من المعانى السامية ، بحيث يتعذر لأى باحث فى أى عصر أن يزعم لنفسه — فضلا عن زعمه للناس — بأنه قد أحاط بأى حكم إحاطة تامة .

الربا والتوزيع :

فإذا تركنا مؤقتاً ذلك الجدل الدائر حول أنواع الربا ، وما كان منه محرماً بالنص القاطع وما كان محرماً لدفع الشبهات . وإذا تركنا كذلك تلك المحاولات الكثيرة الموازنة بين الفائدة والربا ، والقول بأن كل فائدة ربا ، وأحياناً أخرى بغير ذلك . وإذا تركنا أيضاً ذلك التمييز العجيب بين فائدة قرض الاستغلال وفائدة قرض الاستهلاك ، والفائدة التى يدفعها الضعيف الفقير ، وتلك التى يدفعها صاحب المشروع الذى يجمع مدخرات أوساط الناس والضعفاء منهم . . . أقول بأننا إذا تركنا هذا الجدل كله — وقد طال وتكرر — نجد أن كل هذه البحوث تدور فى حلقة مقفلة تعرف فى دراسة الاقتصاد بالتوزيع : أى إعطاء كل عامل من عوامل الإنتاج نصيبه من ثمرات الأرض أو الصناعة أو غيرهما من ضروب النشاط الاقتصادى .

على أن شيئاً من التأمل يدعونا إلى الشك فى هذا التحديد الذى سارت عليه الكثرة الغالبة من الباحثين . وعندى أن تحريم الربا يرجع إلى أسباب وثيقة الصلة بالإنتاج . وأن هذا الذى يبدو من آثار سيئة للتعامل بالربا عند توزيع الثمرات ، إن هو إلا من قبيل أعراض الداء ، لا الأصل فيه .

ذلك أن الإنسان ككائن حى ، يجىء إلى هذه الدنيا لينشىء من حوله مجالا من الاستهلاك وهو من اللحظة الأولى يعتمد فى الإبقاء على حياته — فضلا عن استمتاعه بما فوق ذلك — على طيبات كثيرة منها طيبات مجانية كالهواء والماء ، ومنها طيبات لها ثمن ، كالطعام والكساء . . . بل إن هذه الطيبات المجانية التى تجود بها الطبيعة من غير حساب ، كثيراً ما تتحول إلى سلع اقتصادية ، لها ندرة وبالتالى لها ثمن . فالهواء فى المبانى الكبيرة لا يجود إلا إذا دفعته الآلات عكساً وطرداً ، والماء النقى ، بارداً أو ساخناً ، له ثمن كذلك .

فالإنسان من مولده إلى مماته يستهلك العروض والسلع مما تجود به الأرض أو البحار أو الصناعات : أى أنه يسحب المنفعة وينقص الخيرات ، وإذا فارق الحياة ، يأبى إلا أن يشغل الأحياء بطائفة من الأعباء مما أمرت به الشرائع ستراً لهذا الجسد ، وتكريماً لشىء خلقه الله ثم أماته ، فتعين على الأحياء أن يكرموه بعد أن فارقته الحياة .

فالإنسان إذن قوة استهلاكية ، كالنار تأكل ما تصيبه ، حتى لا تجد فتأتى على ذاتها وتكون هشيما تذروه الرياح .

هذا الإنسان الذى يعيش عبئا على الدنيا يستنزف من أرزاقها ، يتخذ فى حياته سبيلا من ثلاث : الأولى أن يعوض ما أفناه ، والثانية أن يزيد ، والثالثة أن يقصّر .

فأما عن الأولى ، فتتمثل فى حياة الفرد القانع الذى يسعى إلى إنتاج ماهو فى حاجة إليه ليستهلكه ، أو ليستهلك بدله ، فلا هو عبء على غيره ، ولا هو بتارك من ورائه خيراً يتقلب فيه غيره من الناس .

ومثل هذا الفرد تنقضى حياته دون أثر يذكر عنه بخير أو بشر ، لأنه عاش لنفسه لا أكثر ولا أقل

وأما الثانية ، فتتمثل فى حياة الفرد الطموح الذى يكدح حتى ينتج من الطيبات والأرزاق فوق الذى يكفيه ، ثم ينحّيه جانبا ليبقى على الأرض شاهداً على أنه قد بذل من الجهد فوق ما كان يكفيه . ومن هذا الفضل الذى يخلفه كل مجتهد طموح، تتألف المدخرات وتتجمع مظاهر المدنية جيلا بعد جيل ، وتتفاوت أنصبة الشعوب من أسباب الرفاهة التى حرصت الأجيال على ادخارها ورفع بعضها فوق بعض درجات . وأما الثالثة ، فهى فى الواقع محل النظر فيما نحن بصدده ، لأنها تتمثل فى حياة الفرد الذى يستهلك من الطيبات والأرزاق أكثر مما ينتجه ، فهو كلٌّ على خلق الله، ينتزع من خيرات الأرض قدراً لا يعوضه ، فإذا فرغت منه هذه الأرض ، وتخلصت من ظله ، وحوسب عن الفترة التى قضاها حيا يرزق ، ظهر العجز الذى تخلف عن وجوده فى هذه الحياة الدنيا .

ولوكان الأمر مقصورا على حياة فرد بعينه لما استحق الذكر ولاالحساب ، ولكنه التشريع العادل يقيم القسط بين الناس ويضع الميزان .

وإنما تتضح البلية من أمرهذا المخلوق ، حين ننظر فى حالة الأرض إذا رزئت بخلق كثير من طرازه ، وحين ننظر فى حالة المقصر الذى يغلو فى التبلد إلى حد أنه لاينتج شيئا على الإطلاق .

فلننظر إذن فى النتائج التى تترتب على تواجد عدد كبير من الخلق ، الذين لاهم لهم إلا أن يستمتعوا بما أنتجه غيرهم ، ولننظر فى حالة أى مجتمع يشيع فيه هذا الطراز من الناس ، بفرض أن هذا الفريق من المستهلكين قد وجد عددا من الكادحين يرضون بهذه الحال من سوء التوزيع ، أو غياب العدالة عن المجتمع الذى يعيشون فيه .

النتيجة واضحة ومؤكدة ، وتتلخص فى أن تواجد هذه المخلوقات التى لاتنتج

ولو بقدر ماتستهلك ، تصيب المستوى العام للرفاهة بالجمود أولا ، ثم بالتناقص بعد ذلك .

وبقدر الزيادة فى عدد المتبلدين ، تسرع الخيرات إلى النضوب ، وترتكس الأرض ومن عليها بقدر ماجنى عليها القاعدون عن الإنتاج .

وهذه هى حال المرابين ومن فى حكمهم من خلق يعيشون على فوائد القروض .

وقد يبدو أن فى هذا التحليل نوعا من الاتهام لفريق المدخرين الذين يمدون النشاط الاقتصادى برءوس الأموال . . ومع ذلك ، ليس فيما نقول به اتهام نجىء به من عندنا ، بل هو ترديد لحجة المرابين ، فهم يقولون فى تبرير الفائدة ، إن صاحب القرض يقدم ماله وينتظر ، أو يقولون بأن المقرض هو صانع الانتظار . أو إن عمله هو الانتظار . . . كأنما هذا التصرف السلبى بمجرد الكف عن إتيان شىء نافع ، قد كان فى ذاته عملا إيجابيا استحق من أجله المقرض المنتظر إن يستمتع من الحياة بما يشاء . ومن الجلى الواضح أن هذه الطيبات التى رفع المقرض يده عنها وترك لغيره أن يثمرها ، قد كانت صالحة لأداء وظيفتها سواء انتظر هو أم لم ينتظر .

وقد يقال بأنه كان فى وسعه أن يستهلكها ، وبأنه قد مكن لغيره من تسخيرها والانتفاع بها ، بمجرد الكف عن الاستهلاك . والرد على ذلك أن الكف عن الاستهلاك ينتهى إلى الادخار : أى تمكين رأس المال من أن يتواجد . وإلى هنا لايزال تصرف الفرد سلبيا ، وعلى غيره من المنتجين الإيجاب ، بمعنى القيام بعمل منتج .

ثم إن الكف عن الاستهلاك تصرف سلبى يشترك فيه كل من يدخر ، وأن مجرد الادخار ليس يكفى لتبرير الحصول على الثمرة التى تعود من استغلال المدخرات ، لأن الثمرة بدورها كانت وليدة جهد جديد ، بخلاف الجهد الذى بذل لأول مرة عند إيجاد هذه المدخرات

ثم إن القائلين بتبرير الربا والفائدة ، يأتون بأسباب أخرى تنهض عندهم حجة على استحقاق المقرض لجزاء ثابت . من ذلك قولهم بأن المقرض يتحمل أنواعا شتى من المخاطرة كهلاك الدين . وفى هذا القول مغالطة واضحة ، لأن الذى يتحمل المخاطرة ويعوض الديون الهالكة هو ذلك الفريق من المدينين الذين يحافظون على عهودهم ويردون الدين والفائدة . وبالتالى يكون سعر الفائدة مرتفعا بالقدر الذى يعوض ماضاع من رأس المال عند بعض المدينين .

فإذا أضاع زيد قرضا فإن غيره من المقترضين الصادقين يحمل العبء عنه ، وبهذا يتحمل بعض المقترضين أعباء بعض . وأما المقرض فإنه يرتب أمره بحيث لايتحمل من

المخاطرة شيئا، عن طريق رفع نسبة الفائدة بقدر مايخشاه، على وجه العموم، فى جميع عمليات الإقراض من احتمال ضياع بعض الأموال المقدمة فى صورة قروض .

والواقع أن الحجة الكبرى فى تبرير الربا هى ما بدأنا بمناقشته، أى الانتظار، أو الكف عن العمل المنتج، وترك هذ العمل والمخاطرة أيضاً لغيره من العاملين .

وحين أتى الإسلام بنصوص صريحة تشير إلى أن الله سبحانه يمحق الثمرات التى من هذا القبيل . إنما أراد أن يردع الآدمى عن أن يعيش من جهود غيره، لأن هذا الموقف السلبى لا يأتى بخير المجتمع، وبالتالى يكون تحريم الربا داعيا لنشاط كل فرد، بحيث يعيش فى مجال من الإنتاج، كما أنه يعيش فى مجال من الاستهلاك تقضى به طبيعته التى تفتقر إلى الكثير من الطيبات .

على أن هذا المعنى بذاته قديم . وصل إليه فلاسفة الإغريق فى تدليلهم على خلود النفس، واتخذوا من الحركة برهانا على مايقولون به . وعندهم أن الحركة هى الحياة . وحين تزايل النفس هذا الجسد الفانى، تهدأ عنه الحركة والحياة جميعا .

ومالم تكن الحركة خاضعة للعقل المدبر، ومستهدفة أمرا نافعا فهى اضطراب عابث لايجوز عقلا على السائمة وما فى حكمها . بل إن من البهائم مايميز التصرفات، وما كان لبشر أكرمه الله بالقوة العاقلة، أن يضطرب فى حياته بحركة لا إرادية . ولا أن يعيش بغير هدف يشغله، علا أوهان، بقدر ماتنهض إليه همته .

يخلص مما تقدم أن حجة القائلين بالانتظار كمبرر لاستحقاق الثمرة المضمونة للقرض هى حجة تصيب الإنتاج بالعقم، وأن أكل الربا معناه الأخذ من متاع الدنيا بنصيب كاف، دون الاشتراك فى الانتاج .

وهذا مبدأ يهدم الاقتصاد من أساسه، وتتضح خطورته إذا تصورنا تطبيقه على نطاق واسع بحيث يزيد المنتظرون على الكادحين . وتتضح خطورته أيضا إذا فرضته السياسة الدولية الغاشمة بقوة السلاح، دون التفات إلى منافاته لطبيعة الأشياء . فإن صاحب المال الذى يفرض على الكادحين أن يعملوا، ويختص نفسه بالانتظار، قد يظفر بما يريد من الطيبات زمنا، ثم لا تلبث القوانين الطبيعية أن تعترضه حتى تقضى عليه .

« الحديث موصول »

سبحات فكر

للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام

سفير مصر بالباكستان

رمضان فى الحجاز

لا تعمل دواوين الحكومة نهاراً فى رمضان . بل تعمل بعد صلاة العشاء وينصرف الناس منها إلى دورهم ليتسحروا ، ويستريحوا غير مضطرين إلى التبكير للعمل . وهذا عمل مستحسن أيام الحر والصيام . وعسى أن يعمل الموظف فى ساعتين من الليل أكثر مما يعمل فى خمس من النهار . وكذلك الأسواق أكثر عملها بالليل ، تجدها مضاءة مزدحمة بالناس . فيها رواد وعليها بهجة وسرور .

والناس يتزاورون بالليل بعد صلاة التراويح . ولكن ليس لهم من العناية بالسهر والاستماع إلى القرآن فى الدور الكبيرة ما لأهل مصر .

ويميز رمضان فى هذه البلاد احتشاد المصلين والطائفين فى المسجد الحرام ، وإفطار الناس فى المسجد على ماء زمزم وقليل من التمر قبل الصلاة .

وكذلك يحتفل أهل المدينة بالاجتماع فى الحرم النبوى والإفطار فيه . وشهود الصلاة فى أحد الحرمين رجاء كل صائم من أهل مكة والمدينة وما حولها ، وإنه لأنس للنفس وخشوع للقلب ، وما أروع صلاة التراويح فى الحرم . إن فيها لمرأى ومعنى تدركهما القلوب والأبصار .

وأما الصيام فى جدة على حرها ورطوبتها فييسره قلة العطش لرطوبة الجو ، ويروح عن الناس أن تهب الشمال هناك ، وما أكثر ما تهب الشمال .

وأما الصوم فى مكة فشاق لشدة الحر وجفاف الهواء . وكم يقاسى الصائمون فيها من العطش ، وفى المدينة أيام على الصائمين شديدة .

إن فى مكة والمدينة من مظاهر الفرح والبهجة فى رمضان ، وفيهما من الجمال والروعة ما يهون مشقة الصيام .

الحضارة الفاسدة

الإنسان فى بداوته يصاحب الطبيعة ، يتعرض لشمسها وهوائها ، ويرد ماءها ويتتبع مراعيها وينطلق فى أرجائها يتخير منها مقامه ومرعاه ، وهو كافل نفسه يحميها من حيوان أو لص ، شاحذ قواه النفسية والبدنية ، ومهتد طريقه ، عارف مكانه وزمانه بالنظر فى النجوم ومعالم الأرض .

والحضارة خير له إن أسكنته الدار ولم تمنعه الشمس والهواء ويسرت له الطعام والشراب ولم تحرمه الحركة والنشاط ، وإن حمته الوحش واللص ، ولم تذهب بشجاعته وقوته واعتداده بنفسه ، وإن آوته ولم تقطعه عن الخليقة المحيطة به برها وبحرها وجبلها وسهلها ، ونجومها وكواكبها وبروجها .

لا أرى أضر بالإنسان من الحضارة الناقصة الفاسدة . تنقله من سعة الطبيعة وشمسها وهوائها إلى الدور التى تشبه القبور ، أو تقتله بالطعام والشراب والكسل والدعة والترف ، أو تضعف حسه وعقله بالبعد عن مرائى الطبيعة : مساريحها فى السماء والأرض ، أو تذل نفسه وتحبس فكره وتذهب بكرامته بسلطان جائر وقانون فاسد .

إن تكاليف الحضارة الصحيحة ثقيلة . وشروطها كثيرة . فالأمة التى لا تحمل هذه التكاليف ولا تفى بهذه الشروط تحرم مواهب الطبيعة ولا يعوضها عنها العلوم والصناعة . والبدوى أرغد عيشاً وأقرب إلى الإنسانية فى كل شىء ممن يعيش فى حضارة فاسدة وبيئة راكدة .

الخطرة واللمحة والمصادفة

لا تحقر الخطرة فى فكرك واللمحة من بصرك والمصادفة فى عملك ، فربما فتحت كل واحدة لك سبلا ، ومدت أمامك آفاقا . وكم من اختراع أدت إليه خطرة لم يحقرها صاحبها أو هدت إليه لمحة لم يهملها لامحها ، أو نبهت إليه مصادفة لم يغفل عنها المصادف .

ولعل أكثر ما يميز بين المخترعين والمفكرين والمؤلفين وبين غيرهم اهتمام أولئك بكل ما يعرض لهم والتأمل فيه ووصله بما يليه ومتابعة البحث والضبط والاستقراء حتى يهتدى إلى نتائج تتبعها نتائج ، فتخترع الآلة أو توضع النظرية أو تتأسس قواعد العلم .

هدانى إلى هذه الكلمة أنى تنبهت من رقادى اليوم وأنا صائم فأحسست الهمود

والكلال فلم أهم بعمل يحتاج إلى مئونة من الجسم أو الفكر ، ونظرت حولى إلى متناول يدى فرأيت مجلداً من كتاب الذخيرة لابن بسام وقد رأيته من قبل مرات فلم أعبأ به ففتحته على فصول للكاتب العبقرى ابن شهيد فحى فى نفسى الإعجاب بهذا الرجل النابغ . وذكرت ما جال فى فكرى حينما أشرفت على نشر أقسام من هذا الكتاب ، أن ابن شهيد جدير أن يشاد بذكره ويعترف بمكانه وعاودنى الأمل فى أن أخرج كتاباً عنه يلفت النظر إليه ، ويدعو الأدباء إلى العناية به وتقصى أخباره ، وآرائه ورسائله .

قلت لنفسى إن تناولى هذا الكتاب على كلال وتهاون أثار فى الفكر هذا كله فإن صح عزمك فستخرج هذه اللمحة أو المصادفة كتاباً عن ابن شهيد « وتلك الأمثال نضربها للناس » .

غرور الإنسان

إذا سألت إنساناً ماذا فى جيبى أو ماذا فى هذه الحجرة وهو لم يدخلها أجاب متعجباً : وما علمى بما فى جيبك ؟ وما أعلمنى بما فى حجرة لم أدخلها ولكن هذا الإنسان الذى يعجب أن يسأل عما لم يره لا يتحرر من إرسال وهمه فى أطباق العالم ليثبت أو ينفى بغير علم ، فهو يتكلم فى مبدأ العالم ومنتهاه وعما فى النجوم وعما وراءها تكلما لا يهدى إليه تفكير ، ولا يزينه تثبت . لا حرج أن ينظر الناظر فيرتب مقدمات تؤدى إلى نتائج على أن يصف مقدماته ونتائجه بوصفها من العلم أو الظن أو الشك ثم يقف عندها لا يتعداها بغير بينة . ولكن كثيراً من الناس يتكلم فى المحجوبات عن حقائق هذا العالم كلام العالم الثبت وهو لم يعلم ولم يتثبت ولم يحاول العلم والتثبت .

وقد طوع للانسان غروره أن يحسب أنه وحده فى هذا العام عاقل عالم مفكر وليس فى العالم أرضه وسمواته شىء غيره يعقل . ليس فى العالم أرضه وسمواته مخلوق له عقل وعلم وفكر ، ولا خالق يعلم ويدبر رأمر هذا العالم اليتيم المهمل . فليت شعرى كيف خلا العالم من العقل إلا هذا الكائن الضئيل الضعيف . هذا الكائن الضئيل الضعيف ينكر كل الإنكار ويأبى كل الإباء أن يكون فى أعمال الناس وفيما يقع على الأرض بل مايكون فى غير الأرض شىء إلا له سبب لا يقبل أن ديناراً مثلا منقوش دون صانع . ولكن هذا الكائن الضئيل الضعيف الذى حرم العالم كله من العقل والفكر إلا نفسه ، يقبل ان يكون العالم بغير عقل وسيره بغير سبب وبغير تدبير وتصريف . أليس هذا جهلا ؟ أليس هذا غروراً وحمقاً ؟

قصة تمثيلية :

شفاعة الإمام

للأستاذ علي أحمد با كثير

(١)

(في منزل الإمام أبي حنيفة . يدخل صاحبه أبو يوسف)

أبو حنيفة : ماذا وراءك يا أبا يوسف ؟ هل علمت لي علم جارنا الطروب الذي افتقدنا صوته منذ ليال ؟

أبو يوسف : نعم . . . قيل لي إن العسس كبسوا بيته فوجدوه يعاقر الخمر فأخذوه إلى الحبس .

أبو حنيفة : ويح المسكين ! هلمّ بنا ياصاح نغدُ على أمير المدينة لنكلمه فيه .

أبو يوسف : رويدك يا أبا حنيفة . طالما احتال الأمير لتكرمه يوما بزيارتك فلم تفعل ، ثم تغدو اليوم عليه لتشفع لسكير فاجر قد أراح الله الناس من شره !

أبو حنيفة : (في شيء من الحدة) آعتراضاً عليّ يا يعقوب ؟

أبو يوسف : نعم . . . إن الدين النصيحة ، ولو كان الناصح يعقوب ، والمنصوح أبا حنيفة النعمان .

أبو حنيفة : صدقت ، ولكن أين المنكر ويحك ؟

أبو يوسف : لاينبغي لأحد أن يشفع في حد من حدود الله .

أبو حنيفة : أنا لا أشفع في حد يقام عليه وإنما ألتمس منهم إطلاق سراحه بعد ذلك .

أبو يوسف : الحبس جدير بمثله فطالما أزعج الناس ليلا بصوته .

أبو حنيفة : أشهد ما كان صوته ليزعج الناس ، فلقد كان عذبا نديا يطمئن به النائم ، ويستأنس به المريض المكروب وطالما آنسني في جوف الليل .

أبو يوسف : لكنك تعلم أنه كان يشرب طول الليل على غنائه .

أبو حنيفة : يعقوب ... أتمضي معي إلى الأمير أم أمضي وحدي ؟

أبو يوسف : بل أمضي معك ياسيدي ولكن بعد أن يطمئن قلبي إلى أن ذلك هو ما ينبغي لأبي حنيفة أن يعمله !

أبو حنيفة : ويحك يايعقوب إن لهذا الجار أيادي عندي تقتضيني المروءة أن أجزيه عليها

أبو يوسف : ما سمعت كاليوم عجباً . ترى أي أياد يسديها سكير مثل هذا لأبي حنيفة ؟

أبو حنيفة : ما خطبك اليوم يا يعقوب ؟ أو ليس يسعك يا بني أن تصدق قولي ؟

أبو يوسف : كلا يا سيدي حتى أسمع تفصيله منك لأكون على بينة من أمري !

أبو حنيفة : (محتداً) اصغ إذن وافهم ! إني كنت أسمعه يتغنى طول الليـل فتنثال على خاطري معان ولطائف ما كانت لتخطر لي لولاه . كنت أسمعه فأقول لنفسي إذا كان هذا يعاف النوم ويقضي الليل كله مردداً .

أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

وهو لا يرجو ثوابا على ذلك من الله ولا جزاء من الناس ولا منفعة تعود عليه في دنياه فما بالي أتثاقل عن القيـــام لربي وأنا أرجو ثوابه وأخاف عقابه وأطمع في خير ما عنده وأنا أجد إلى ذلك كله من لذة المناجاة وتلاوة آيات الله ما ينسيني كل لذة وما أحقر معه الدنيا وما فيها !

أبو يوسف : هذه يا سيدي يد واحدة فماذا غيرها ؟

أبو حنيفة : ألقى في روعي أن هذا الرجل ما تخير هذا البيت ليتغنى به كل ليلة إلا لأن حيفاً ربما وقع عليه من بعض من كان يرجوهم من الناس . فكنت أقول لنفسي : الحمد لله الذي أغناني عن الناس جميعا فلا أشكو منهم ظلما ولا حيفا ، وأفقرني إليه وحده وهو العادل الرحيم لا يظلم أحداً ولا يقسو على أحد .

أبو يوسف : هذه ثانية والثالثة ؟

أبو حنيفة : (مطرقا على حاله عاقداً يديه فوق حاجبيه كدأبه حين يملي المسائل على أصحابه) : كنت أحدس من نبرات صوته وطريقة ترجيعه في الغناء أنه — لا بد — عاكف على شراب ، فكنت أعجب من أمره كيف يرفع عقيرته باللحن ليدل العسس على مكانه ويرشدهم إلى نفسه ، فكنت كلما قمت ليلة وسمعته بعد هناك تعجبت من طول حلم الله وستره عليه فأقول لنفسي : هذا ستر الله سبحانه على هذا المتهتك فما بالك ستره على المستورين من عباده ، (يرفع رأسه فيدهش إذ يرى أبا يوسف منهمكا يكتب ما يسمع) ويحك ما تصنع يا يعقوب ؟

أبو يوسف : أقيد ياسيدي ما سمعت .

أبو حنيفة : هيه ويلك .. أكنت تعمدت خلافي لتستدرجني إلى هذا ؟

أبو يوسف : هو ذاك ياسيدي الإمام فهب لي سوء أدبي اليوم معك .

أبو حنيفة : (ضاحكا) ويلك يا أمكر من قصير . ما أرى إلا أن هذا سينتهى بك يوماً إلى السلطان لالتشفع إليه فى سكير بل لتتربع على السرير بعد الحصير !

أبو يوسف : معاذ الله ياسيدى والله لا ...

أبو حنيفة : (يقاطعه) مه لاتحلف على مافى غيب الله فعسى أن ينفع الله بك الناس يومئذ وكل ميسر لما خلق له . قم بنا الآن إلى الأمير !

أبو يوسف : اليد الرابعة ياسيدى الإمام : دعنى أسمع اليد الرابعة .

أبو حنيفة : الآن وقد كشفتك ؟ ! انهض ويلك !

(٢)

(فى مجلس أمير الكوفة)

الأمير : مرحبابك يا أبا حنيفة ألف مرحب !

أبو حنيفة : ماهذا الذى صنع رجالك ؟

الأمير : أى شىء صنعوا ؟

أبو حنيفة : اعتنقوا بغلتى فحالوا بينى وبين النزول وأقبلوا بى راكبا حتى وطئت البساط .

الأمير : أنا أمرتهم بذلك يا أبا حنيفة تكرمة لك .

أبو حنيفة : لعلك بالغت فى تكرمتى عند القدوم لتمهد لنفسك سبيل الاعتذار عن قضاء حاجة قد ألتمسها منك ؟

الأمير : حاشاى يا أبا حنيفة . إنه ليسعدنى أن تقضى لك عندنا حاجة . فطالما التمسنا هذا الشرف فأعيانا ، اقترح ياسيدى واحتكم فإنى أنا ورجالى رهن مشيئتك . قل لنا ماحاجتك ؟

أبو حنيفة : جار لى أخذه عسكم فأخلوا منه بيته ليعمروا به مكانا فى سجنكم .

الأمير : قد وهبنا لك جارك .

أبو حنيفة : ألا تنتظر حتى تعلم ماذنبه ؟

الأمير : مهما يكن ذنبه فلن أرد شفاعتك .

أبو حنيفة : مهلا فما جئت لأشفع له ولكن لأراه .

الأمير : ائت به ياغلام !

الغـــلام : بمن ياسيدى الأمير ؟

الأمير : ويلك سل عن جار أبى حنيفة بين المسجونين فأتنا به !

أبو حنيفة : (يضحك) ما اسمه يا أبا يوسف ؟

أبو يوسف : اسمه عاصم بن عبد العزيز .

الأمير : ائتنا بكل من اسمه عاصم بن عبد العزيز .. انطلق !

الغلام : سمعاً ياسيدى الأمير (يخرج) .

الأمير : أما من حاجة أخرى يا أبا حنيفة ؟

أبو حنيفة : لا وجزاك الله خيراً .

الأمير : هل لك أن تصيب عندنا ذواقا ؟

أبو حنيفة : إنى اليوم صائم .

الأمير : وصاحبك هذا الفتى ؟

أبو حنيفة : هذا أبو يوسف يصوم يوم أصوم ويفطر يوم أفطر .

(يدخل الغلام يسوق رجلا فى يديه القيد)

الغلام : ما وجدنا بهذا الاسم يا سيدى الأمير غير هذا .

الأمير : أهذا طلبتك يا أبا حنيفة ؟

أبو حنيفة : لعله هو !

الأمير : عجباً كأنك لا تعرفه ؟

أبو حنيفة : من اليسير أن أعرفه (للرجل) أأنت الذى كنت تغنى :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر ؟

عاصم : يا ويلتا أ كنت تسمعنى يا سيدى الإمام ؟ إنى أعدك ألا أعود لمثلها .

أبو حنيفة : بل عد إلى مثلها فما كان للعسس أن يأخذوك من أجل أن الله قد وهبك صوتاً عذباً فجملت تترنم به فى جوف الليل إظهاراً لنعمته عندك !

عاصم : أصلحك الله يا سيدى ما لهذا أخذنى العسس .

أبو حنيفة : فلعلهم أخذوك لأنهم حسبوا أنك كنت تتهمهم جهاراً بأنهم أضاعوك وما أضاعوك ؟

عاصم : لقد كنت يا سيدى . . . . . .

أبو حنيفة : (مقاطعا) أعلم أنك كنت تلتمس العزاء فى الغناء كما يلتمس غيرك العزاء فى تلاوة القرآن . أليس هذا ما أردت أن تقول ؟

عاصم : كلا يا سيدى . . . .

أبو حنيفة : لا تنكر ويحك . ألا تدرى يا عاصم بن عبد العزيز أنى هممت ذات يوم أن أزورك لأبلغك أن لو استعملت صوتك العذب فى تلاوة آيات الله

مكان باطل الشعر لكان ذلك أشكر لنعمة الله التى عندك !

عاصم : (فى اندفاع كأنما خشى أن يؤول قوله) ياسيدى لقد كنت أشرب الخمر !

(يجم الجميع متعجبين)

أبو حنيفة : (فى هدوء غير منتظر) أعلم ذلك يا عاصم !

عاصم : تعلم ذلك ؟

أبو حنيفة : نعم أعلم أنك كنت تقرن الباطل بالباطل ولكن أتراك كنت تشربها لو كنت ترتل آيات الله ؟

عاصم : معاذ الله يا سيدى الإمام ! (يبكى)

أبو حنيفة : ويحك ما يبكيك ؟ أوظننت أنى جئت لتقريعك وتأنيبك ؟ لا والله يا جارى العزيز ما جئت إلا لأراك وأطمئن عليك منذ افتقدت صوتك الذى طالما آنسنى فى ظلام الليل !

عاصم : (ماضيا فى بكائه) ليس هذا الذى أبكانى يا أبا حنيفة ولكن أن تسأل عنى وتحضر لرؤيتى وأنت تعلم أنى أعصى الله فى كل ليلة !

أبو حنيفة : هذا حق الجوار ياعاصم لا يسقطه عنى أنك تعصى الله فى كل ليلة ، فالله وحده هو الذى يدين العباد بذنوبهم فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .

عاصم : والله ياسيدى ما أدرى كيف أشكرك ، ولكن والله لأتوبن توبة نصوحا تجعلنى أهلا لجوارك .

أبو حنيفة : جزاك الله عنى خيراً ياعاصم . الآن قلدتنى منة لن أنساها لك ماحييت !

عاصم : ماذا تقول ياسيدى الإمام ؟ أى منة لى عليك ؟ أنت صاحب المنة علىّ !

أبو حنيفة : رويدك يابنى لقد كنت أدعو الله كل ليلة أن يهديك ويتوب عليك فكنت أرتقب كل ليلة نتيجة دعائى فأراك وقد انقطعت عما كنت فيه . حتى إذا افتقدت صوتك سألت عنك ، فإذا أنت فى الحبس ، فأشفقت أن يكون فى سوء عملى مما لا علم لى به مامنع من قبول دعائى . فكيف لا تكون صاحب المنة علىّ وقد بشرتنى الآن بأن الله استجاب الدعاء وأنه سبحانه وتعالى غير ساخط علىّ ؟

عاصم : (تغرورق عيناه بالدموع) يا أبا حنيفة هل لك أن تسدى إلىّ جميلا بعد ؟

أبو حنيفة : اقترح ياعاصم .

عاصم : أنشدك الله ألا ما أرشدتنى إلى أفضل عمل عند الله لأقوم به ؟

أبو حنيفة : وإن شق عليك ؟

عاصم : وإن شق عليّ !

أبو حنيفة : كنت تردد ياعاصم :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

عاصم : أجل ياسيدى الإمام .

أبو حنيفة : فهذه ثغور بلاد الإسلام لاترد من ينتدب للدفاع عنها من فتيان المسلمين!

عاصم : (يهتف فرحا) أجل والله ياسيدى الإمام لئن خرجت من هذا الحبس معافى لأنطلقن إلى ثغر من تلك الثغور فأجاهدن فى سبيل الله حتى ألقى الشهادة !

أبو حنيفة : (يتهلل وجهه بشرا) بخ بخ لك ياعاصم ! (للأمير) ماذا ترى الساعة أيها الأمير ؟ أتبقيه بعد فى سجنه ؟

الأمير : ويحك ياسيدى الإمام أبعد هذا الذى سمعناه منك ومنه ؟ اذهب ياعاصم فأنت مطلق السراح !

عاصم : شكراً لك ياسيدى الأمير .

الأمير : كلا لا فضل لى عليك . الله هو الذى أطلقك . (يلتفت للغلام) اسمع يا غلام . . انطلق فمرهم يحصوا كل من أخذ تلك الليلة إلى يومنا هذا فليطلقوهم جميعاً .

أبو حنيفة : شكر الله فضلك أيها الأمير . قد أبيت إلا أن تفضل علينا .

الأمير : والله يا أبا حنيفة ما شهدت كاليوم هدى وحكمة ! والله لو بعث به عمرى لكنت الرابح .

أبو حنيفة : الفضل لعاصم بن عبد العزيز .

الأمير : أجل . . لولاك يا عاصم ما أولانى أبو حنيفة شرف زيارته .

أبو حنيفة : يا ابن عبد العزيز هل لى أن أوصيك ؟

عاصم : حباً يا سيدى الإمام وكرامة !

أبو حنيفة : إذا ما أكرمك الله بالشهادة فلا تنس أن تشفع عند ربك لهذا الأمير الكريم . . ولجارك أبى حنيفة !

« ستار »

باب الكتب : نقد وتعريف

النظريات السياسية الإسلامية : للأستاذ الدكتور محمد ضياء الدين الريس

---

١ — سبق الإسلام الشرائع الحديثة بتقرير الحكم على أسس ثلاثة مجتمعة ، هى دعائم الحكم الإسلامى ، فإن اختل ركن منها تداعى بنيانها ، ولم يكن الحكم إسلامياً ؛ ولم يكن ذا صلة بالدين ، لا فى شكله ولا فى جوهره .

أول هذه الأسس : تقرير السلف الصالح ـ تابعين لوصايا النبى الكريم ـ أن الحكم عهد بين الحاكم والمحكوم ، تؤخذ المواثيق على الحاكم أن يراعى العدل والمصلحة ، وإقامة الحدود ، وتنفيذ أحكام الدين ؛ وعلى المحكوم السمع والطاعة فى المنشط والمكره فيما لا معصية فيه ، فإن كانت المعصية فلا سمع ولا طاعة . هكذا كان النبى يأخذ العهود ، وهكذا كانت بيعة الخلفاء الراشدين .

وثانى الأسس : الشورى فى أدق معانيها ، وذلك أمر قد قرره الكتاب ، فأمر نبيه الأمين الذى ما كان ينطق عن الهوى بالشورى فى كل أمر يتصل بالحكم عن قرب أو بعد ، فقد قال تعالى : « وشاورهم فى الأمر » وقال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » والشورى أساس الرضا بالحكم ، والطاعة عن اطمئنان قلب ، والسمع مع استجابة النفس ؛ وهى تمنع الزلل . وتجنب الخطأ ، وهى تجعل الحاكم على صلة نفسية بالمحكوم دائماً .

وثالث الأسس : العدل الشامل ، الذى لا يفرق بين عدو وولى ، العدل مع الرعايا والدول ؛ والعدل فى المحبة والبغض ، فقد قال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » ولم يعرف التاريخ حكما يعدل مع أعدائه كما يعدل مع أوليائه كحكم الإسلام : يعدل فى الحرب وفى السلم ، وفى العهد وفى الخيانة ، والعدل مع الخائنين بالنبذ إليهم على سواء ؛ فهو يقرر القتال ويمنع الاعتداء ويأمر بالتقوى فى الحرب فيقول الله : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » .

٢ — هذه أسس الإسلام فى الحكم والسياسة ، وكل ما يتصل بالحياة ، نشير إليها الآن ؛ لأننا استعرضنا كتاب الأستاذ محمد ضياء الدين الريس (النظريات السياسية

الإسلامية) وهو فى هذا الكتاب قد اتجه إلى فلسفة السياسة الإسلامية ؛ والمناحى التى نحت نحوها الطوائف الإسلامية ، والمذاهب المختلفة ، مبيناً ما تجتمع فيه من أصول وما تفترق فيه من فروع ، وقد كان بينا من دراساته للمذاهب المختلفة أنها كيفما كان اختلافها مرتبطة دائما بالقيم الخلقية العليا ، لا تتجاهلها ولا تنفصل عنها .

وقد عرض الكاتب فى كتابه القيم لنشأة النظريات فى السياسة الإسلامية ، وتكوين الفرق والأحزاب ، وحقيقة الأمانة ووجوبها ، والعقد السياسى أو الاجتماعى الذى طبقه الإسلام تطبيقاً دقيقاً فى عهد الخلفاء الراشدين الأربعة رضى الله عنهم أجمعين ، ثم تعرض للولايات التى تتفرع من الولاية الكبرى وهى الإمامة العظمى ؛ ثم بين عدل الإسلام مع مخالفيه الذين يستظلون برايته ، ويخضعون لولايته ، وما منحهم إياه من حرية دينية لم ينالوها من أهل دينهم إن اختلفوا معهم ملة أو جنساً أو قبيلا .

٣ — لقد خاض الكاتب الفاضل فى هذه البحوث خوض العارف المستقرى المتتبع الجامع لاشتات المسائل فى كليات عامة من غير أن يتيه فى جزئيات لا حدود لها !

وقد جمع فى دراسته بين الأصول الدينية للنظريات المختلفة والأدوار التاريخية التى مرت بها وتلقى نفوس الأجناس المختلفة القبائل والشعوب لها ، وانحرافها فى نفوس طائفة واستقامتها فى نفوس آخرين .

وهو فى كل ذلك قد استولى على موضوعه تفكيرا وتعبيرا ، ودقة وعمقا وإحكام عرض ، وحسن تأت لدقائق المسائل ، ومختلف الأقوال .

٤ — هذه إشارات لامحة لهذا السفر القيم ؛ وقبل أن أدع القلم لا بد من الإشارة إلى ثلاثة أمور :

أولها : أن الكاتب لم يبين سياسة الإسلام مع غيره من الدول وهى سياسة تصدى القرآن الكريم لبيانها وتصدى النبى صلى الله عليه وسلم لشرحها بقوله وعمله ومعاهداته وحروبه ؛ وهى أدخل فى باب السياسة ؛ وهى أنسب لوصف الكتاب ، وبيانها عرض المثل العليا فى عصر تسود العلاقات بين الدول فيه حكم الغابة الذى أساسه افتراس القوى للضعيف ؛ ويحكم فيه الظفر والناب .

ثانيها : أن النظر التاريخى وتتبع الأدوار جعله يسير فى حكمه وراء النظريات التى قررها العلماء واختلفوا حولها ، وكنا نود أن يعنى عناية كاملة فى فصل أو فصول

بالحكم الإسلامى الصحيح المستنبط من الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح الذى يجب العمل به الآن .

ثالثها : أن هذا الكتاب جاء فى إبانه ، فنحن الآن نضع الأسس لنظام الحكم فى مصر ذؤابة الدول الإسلامية ، ومن حق الأمة أن يربط حاضرها بماضيها ، ويعرف فكر السابقين فيما يفكر فيه الحاضرون .

٥ — وأخيراً إن هذا كتاب قيم ، لايمنعنا نقده من الاعتراف بفضله ؛ وقد عرفنا كاتبه منذ صباه ، عرفناه فى باكورة الشباب شابا نابغا ألمعياً مجدا مثابرا متقدما صفوف إخوانه ، وعرفنا وقد بلغ أشده واستوى على كرسى الدرس أستاذا جامعيا محققا ، متثبتا ، متعمقا ، يغوص فى طلب الحقائق غوص العارف بمواصفها المدرك لغاياتها ، وفقه الله وأثابه ، والله هو الهادى إلى سواء السبيل .

محمد أبو زهرة



الأعـــداد الأولى

أعيد طبع الأعداد الثلاثة الأولى ، من السنة الأولى ، وتأخر إرسالها — كما وعدنا — للذين ضاعت أعدادهم فى البريد ونحن نعتذر عن ذلك لسبب يتصل بتنظيم أعمال التوزيع . وسترسل إليهم فى ذى القعدة إن شاء الله .

أما الرابع والخامس — فسيعاد طبعهما قبل ذلك وسيرسلان إلى حضرات المشتركين فور صدورها .

« الإدارة »

صوموا تصحوا

للأميرالاى الدكتور أحمد الناقه

عرف قدماء المصريين الصوم عن بعض الأطعمة فى بعض الأيام حرصاً على الصحة وحفظا لأنواع الحيوان والطيور والأسماك حين تناسلها وحين تفريخها وتكاثرها .
وكانوا ينظفون أجوافهم بالمسهلات فى كل شهر حتى تسلم أبدانهم من شر الامتلاء .

ويصوم اليهود والنصارى عن الحيوان وما يخرج منه فى أيام معلومات ، لايذوقون فيها لحماً ولا بيضاً ولا لبنا ، ولكنهم يأكلون الأغذية النباتية .

وفى الإسلام فرض الصوم لا عن بعض الطعام دون البعض ، ولكن عن كل الطعام ، ولا عن الطعام دون الشراب ، ولكن عن الطعام والشراب جميعا ، وهذا أبلغ فى صحة البدن ورياضة النفس على الصبر وذكر الفقر :

« يأيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » ، والصوم فرض فى رمضان ، وسُنة فى غير رمضان ، وحرام فى أيام العيد ، ويكون بالامتناع عن الأكل والشرب وجميع المفطرات من الفجر إلى غروب الشمس . ويجب أداؤه على المسلم البالغ المقيم صحيح الجسم والعقل ، غير الحائض والنفساء . ويفسده وصول شىء من الغذاء والدواء إلى الجوف .

فرض الصوم لحكمة بالغة تكفل صحة البدن ويقظة الذهن وراحة النفس : أما صحة البدن فتكون بالتخلص من الفضلات المتجمعة ، والأخلاط المتراكمة . وأما يقظة الذهن فباجتناب كثافة الطعام التى تصرف الدم عن المخ إلى البطن . وأما راحة النفس فبالفراغ للطاعات ، وفعل الخيرات ، والتعاون على البر والتقوى . وإذا اجتمع للمرء صحة فى بدنه ، وجلاء فى ذهنه ، وصفاء فى نفسه ، استشعر فى نعمة الصوم شبع الإيمان ورى اليقين .

ولكن كثيراً من الناس نسوا الله فأنساهم حكمته ؛ فكان صيامهم تخمة آخر الليل وجوعا وعطشا آخر النهار . يرقبون الشمس فإذا غربت جلسوا إلى الطعام والشراب ، فملأوا البطون حتى البلعوم ، ثم سهروا وسمروا وهم لا يكفون عن أكل «النقل» والحلوى وشرب المرطبات والمثلجات . فإذا فرغوا من ذلك لامسوا النساء على امتلاء ، ثم قاموا إلى السحور فأفرطوا فى الطعام والشراب خوف الجوع والعطش

طول النهار ثم ناموا ، فإذا صحوا ضحى قاموا كسالى ، وإذا خرجوا إلى أعمالهم بدا عليهم الجهد والضجر وسوء الخلق فاعتذروا من كل ذلك بالجوع والعطش والله يعلم أنهم لمتخومون ، وأن هذا العناء الذى يلاقون ، إنما مرده إلى عسر الهضم وإجهاد الكبد ودورة الدم وسائر الأعضاء ؛ ولو أنهم تصدقوا ببعض هذا الطعام لربحوا الصحة والعافية وحسن ثواب الآخرة .

ويطرد هذا النهم ثلاثين ليلة فتضعف الأجسام وتخور القوى وتفور العلل السافرة وتظهر الكامنة كسوء الهضم ومرض الكبد ، والصفراء والخمول والضجر ، وضعف الأعصاب والبدانة وارتفاع ضغط الدم وتصلب الشرايين وضعف القلب وداء السكر والنقرس . فإذا انقضى رمضان فرحوا واستبشروا والتمسوا الطب لأنفسهم من شر الصوم وذلك ظن باطل . وهؤلاء لا يجهلون حكمة الصـــوم فحسب ، بل إنهم ليجهلون عناصر الغذاء كذلك ، ولا يعلمون أن كثرة الغذاء وقلته وسوء اختياره كلها كفيلة بأن تجلب الأذى ، فالغنى يصاب بأمراض الامتلاء التى قدمنا ، والفقير بأمراض نقص التغذية وهذه يشفيها الغذاء وحده حين لا ينفع فى أكثر أمراض الامتلاء غذاء ولا دواء ، وذلك شر الجزاء لمن أفرط فى الغذاء .

ومن فضل الله ورحمته بالفقراء أن خلق لهم من الغذاء فى اللبن والجبن والبيض والفول والعدس والخضر والتمر والخبز والبقول والحبوب وغيرها ما يغنى عن الشحم واللحم والطير وسواها من الأطعمة الغالية الثمن . ومن رحمته كذلك أن جعل الخير فى الرغيف الأسمر الذى يحوى النخالة والشر فى الرغيف الأبيض والفطير . وجعل البركة كذلك فى التمر والفاكهة والندامة فى الحلوى الدسمة « إن ربك لذو فضل على الناس ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون » .

ولعل أكثر أمراض سوء التغذية ناشئ من شر البلايا : الفقر ، والجهل ، والمرض . أما الفقر فيعوق حق الكفاف المستمر بسبب ضيق ذات اليد أو قلة الغذاء المحلى وعدم تعزيزه من الخارج لقلة المال أو صعوبة المواصلات أو كليهما ، وبخاصة فى البلاد النائية المنعزلة حيث لا تنمو الخضر والفاكهة ، أو حيث تستخدم الآلات بدل الماشية لفلاحة الأرض فتقل الأغذية الحيوانية . وأما الجهل بالقيمة الغذائية لشتى الأطعمة فهو فاش فى الناس أجمعين ، غنيهم وفقيرهم ، فالغنى يسيء اختيار طعامه ويحسب أن أحسن الأغذية أغلاها ثمناً فيكثر من اللحم والشحم والسمن والدسم والفطير والحلوى وسواها مما لذ وطاب فيصاب بالبدانة وعلل الامتلاء ، وأكثرها يستعصى

على الدواء . وأما الفقير الذى لا يجد ما ينفق فليس له أن يختار إلا بين الخبز القفار وبعض الخيار ، وهذه ونحوها لا تقيم الأود ، ولا تسد الرمق ، لنقص عناصرها المغذية التى تقى الجسم شر الضعف والخور . وأما المرض فإنه يعجز الناس عن الإتقان إذا عملوا فيقل رزقهم ، وقد يعجزهم كذلك عن هضم الطعام والاستفادة به إذا وجدوا ما يأكلون .

وإذن فلابد من علاج للفقر بالعمل والتصنيع ، وللجهل بالتعليم العام ، وللمرض بالإرشاد الصحى والدواء . والإشراف على غذاء الناس من أخص شئون الهيئات الصحية التى يجب أن تشير على الدولة بما يزرع أو يستورد أو يصدر من شتى الأغذية ، وكذلك يجب أن تشير بمقدار أجر العامل حتى يجد هو وأهله الكفاف على الأقل ، وفى ذلك خير للعامل وصاحب العمل والأمة جميعا . ولا يصح أن ننسى أن الغذاء الجيد يزيد الإنتاج لأنه يحفظ الصحة ويوفر نفقة العلاج .

ويحزننا أن نرى كثيراً من الفقراء الضعفاء المرضى بسوء التغذية ينفقون قليل مالهم على التدخين والشاى وتلك المشروبات المستحدثة « كالكوكولا والبيبسى كولا » ونحوها ، ولو أنهم أكلوا بثمنها شيئا من اللبن أو البيض أو الفول ، أو العدس أو « الطعمية » أو الخضر أو الفاكهة لكان أشفى لهم وأصح وأبقى .

والجسم يستخدم الغذاء إما بناء لأنسجته وأعضائه ، وإما وقوداً للحركة والحياة . فأما أغذية البناء فأهمها الزلالية كاللحم والفول والبيض واللبن والجبن والطيور والسمك وأما أغذية الوقود فأهمها النشوية والدهنية كالحبوب والدريات والسكريات والبقول والخضر والفاكهة وكالزيت والسمن والزبد . وقد أودع الله أكثر الأغذية الطبيعية « حيوات (فيتامينات) وأملاحا » تعين على البناء واحتراق الوقود فى البدن وتكثر فى الخضر والفاكهة واللبن والبيض والكبد واللحم والتمر ، وأحسن الطعام ما شمل شيئا من كل ذلك . وقد يقوى الصبا والشباب على جميع الأغذية . أما الشيخوخة والهرم فلا تحتمل غير السهلة البسيطة مثل الخضر والفاكهة واللبن واللحم الطرى .

وفضل الصوم كبير على البدن والعقل والروح جميعا ؛ وذلك أن المعدة تهضم الغذاء ثم ينحدر منها إلى الأمعاء فتمتصه ، ثم إلى الكبد فيتم إنضاجه قبل أن تنتفع به سائر الأعضاء ، وقد يتخلف منه فضلات تعجز عنها قوى الهضم والإنضاج ؛ إما لكثرة الغذاء ، أو لرداءته ، أو لسوء اختياره ، أو لسوء إعداده ، أو لكل ذلك . وهذه الفضلات تتراكم على مر الأيام فتصيب البدن بالمرض « المعدة بيت الداء » . « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » .

والصوم الحسن كفيل بالخلاص من هذه الفضلات والأخلاط الضارة ؛ فهو للسليم فرط الصحة ، وللمريض عين الشفاء ، ولا يكون الصوم حسناً إلا بالحمية من الطعام الغليظ المركب الدسم ، والإقبال على الخفيف البسيط النضيج . « والحمية رأس الدواء » من علل شتى أخصها أمراض الامتلاء « حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه » .

ويدعى أطباء اليوم أنهم استحدثوا العلاج بالحمية ؛ وهو قديم فى الصوم ، وقد صدقهم الناس حين نسوا حكمة الصوم فساءت صحتهم ، فالتمسوا لها الطب بالحمية .

وفى رمضان يتسع مجال التأمل فى حال المسلمين وإصلاح شأنهم فى أمور معاشهم ومعادهم وإحكام الصلة فيما بينهم : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » . والنفس تأنس بذكر الله والصلاة ، وتطهر بالصدقة والزكاة : « قد أفلح من زكاها » ، وتقوى الصلة الروحية بالملأ الأعلى ، وهذه أسمى درجات السعادة فى العبادة .

وقد لا يقوى على الصوم الصبية فى سن النمو ، والحوامل والمراضع والمرضى والضعفاء والكهول وذوو المزاج العصبى والضعف النفسى والعقلى إذا هم اشتغلوا بعمل شاق فى حر الصيف ، وخاصة حين تتعلق بأعمالهم مصالح الناس ومعايشهم : « فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين »

ومن الناس من يعيش على أكلة واحدة فى اليوم ، ومنهم من يعيش على أكلتين ، فإذا صاموا فإنما تتغير أوقات طعامهم فحسب . أما مقدار ما يدخل جوفهم من الغذاء فلا يقل ، بل ربما زاد كثيراً عند الذين يخشون الجوع والعطش . والقوم فى أمريكا يعملون طول النهار ، ويعيشون على أكلتين : الفطور والعشاء ، ولا يتناولون فيما بين ذلك إلا القهوة أو شيئا خفيفا عند الظهر لايعرضهم للخمول وقت العمل . والذين يشق عليهم الصوم يستطيعون بعد نصف شعبان أن يباكروا الفطور والعشاء حتى يقربوا تدريجيا من الفجر والمغرب ، وأن يقلوا من الطعام والشراب فيما بينهما فإذا جاء رمضان لم يرهقهم الصوم . وقد لا يبالى الصائم بالجوع ولكنه يكابد العطش ولعل أشد الناس شعورا بالجوع والعطش هم الذين يزحمون بطونهم فى السحور بالطعام والشراب .

وهذه بعض النصائح التى قد تفيد الصائم : —

١ — أصلح بالصوم ما أفسد النهم والدسم من أمر صحتك إن كنت غنيا : « جوعوا تصحوا » .

٢ -- أعن أخاك الفقير على أن يصلح ما أفسد الجوع والحرمان من صحته : « كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » .

٣ — اجعل من رمضان شهر الحرمان للغنى وشهى الطعام للفقير .

٣ — لاتهجم على الطعام والشراب بل تمهل ولا تثقل على المعدة فجأة .

٥ — اجتنب الطعام الدسم كثير السكر والملح فى السحور إن شئت ألا تحس الجوع والعطش .

٦ — من لم يجد ما يأكله فليستعن باللبن فهو طعام وشراب .

٧ — عجل بالفطور وأخر السحور ما استطعت .

٨ — السهر والسمر يعين على هضم الفطور .

٩ — فيما بين الفطور والسحور لاتكثر من « النقل » والسوائل المثلجة فتعطل عمل القوة الهاضمة .

١٠ — اشتغل نهارك بما يجدى ولا يجهد تنس الجوع والعطش .

١١ — لاتقرب النساء على امتلاء حتى يتم هضم الفطور .

١٢ — تمسك بما اعتدت فى رمضان من الاعتدال والهدوء والإيثار .

١٣ — اعتصم من صروف الدهر بالصوم واجعله ملاذك كلما ضاقت بك الدنيا .

١٤ — دع الهموم فهى سموم تفسد الصحة ولا ينفع معها غذاء ولا دواء .

١٥ — من حسنات رمضان أنه يشيع فى المسلمين روح المرح والقناعة والتوكل وهذه تشرح الصدر وتريح النفس وفيها شفاء للناس .

فإذا خرج المسلمون من رمضان سليمة أبدانهم ، طيبة نفوسهم ، بما اعتادوا من الكف عن كثير الطعام وفضول الكلام ، ومن بذل الصدقات وصلة الأرحام . فمن الخير ألا يعودوا إلى ما كانوا فيه من تفاخر بالأموال والأولاد ، وتعاون على الإثم والعدوان ؛ فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

وعلى قدر حظ الصائم من الإيمان يكون فرحه واستبشاره برمضان ، ومن قوى إيمانه ودّ لو كان الدهر كله رمضان حتى يقضى العمر فى العمل الصالح والصلاة والزكاة والتأمل فى أسرار الكون وجلال الخالق « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

إن لبدنك عليك حقا

بإشراف الأميرلاى الدكتور أحمد الناقه

س ١ : ماسبب الموت المفاجئ الذى كثر حدوثه ؟

ج : إنسداد شرايين القلب بسبب تصلبها من نكد الدنيا .

س ٢ : هل يمنع داء السكر وضعف القلب من الزواج ؟

ج : لايمنع من الزواج أحدهما أو كلاهما وخاصة إذا كان المرض خفيفا ؛ أما إذا شديدا يستعصى على العلاج فقد يمنع .

س ٣ : يحب السبانخ والملوخية والرجلة ويسأل أيها أكثر فائدة ؟

ج : كلها غذاء جيد غنى بالفتامين والأملاح النافعة ، فالسبانخ تحوى فيتامينات ا و ج وأملاح الحديد ، والملوخية غنية بفتامين ب ، والرجلة بفتامين ج .

س ٤ : فلاح يشكو ضعفاً وألماً شديداً فى « فم المعدة » ؟ فهل هو مصاب بقرحة المعدة ؟

ج : قد يكون المرض : بلهارسيا ، أو انكلستوما ، أو التهاب كيس الصفراء ، أو نحوها ؛ فاستشر الطبيب فإن لم يجد شيئا من ذلك ففكر فى القرحة .

س ٥ : التهاب منابت الشعر أكثر من سنة ولم يصلح فيه دواء ؟

ج : جرب مرهم تيراميسين ١٪ .

س ٦ : فتاة مضطربة الحيض هل ينتظر أن تكون عقيما إذا تزوجت ؟

ج : لاينتظر أن تكون عقيما إذا أظهر الفحص الطبى أن أعضاءها سليمة .

س ٧ : تاجر يسأل عن السبب فى أن رجال الصحة يصرون على إعدام علب الأغذية المحفوظة إذا انتفخت ، مع أنه أكل إحداها فلم يصب بسوء ؟

ج : انتفاخ العلب ناتج من غازات تكونت بفعل أحماض الطعام على الجدران المعدنيه للعلب ، أو بفعل جراثيم ضارة لوثت الطعام ، والتفريق بين الاثنين صعب فلزمت الحيطة ، ولعلك لم تصب بسوء لأن انتفاخ علبتك كان بفعل الأحماض .

س ٨ : جد هرم مصاب بسلس البول فى الفراش . ما السبب وما العلاج ؟

ج : قد يكون سلس البول من التهاب مجرى البول والمثانة أو تضخم البروستاتة أو ضعف الأعصاب ، ولكل منها علاجها حسب مشورة الطبيب .

مع العارفين

الإمام الممتحن : أحمد بن حنبل

بين فتنة الجاه وفتنة المال

(٣)

كانت الدار التى نزل بها أحمد فى « سامرا » تستقبل كل يوم عديداً من رجال الدولة وغيرهم ، يفدون عليها لزيارته والاطمئنان على حاله . . . وكان ولداه عبد الله وصالح يقومان عنه باستقبالهم وتحيتهم ، أما هو فكان لايخرج إليهم من حجرته وصلاته إلا قليلا . . . فانحدر صالح إلى بغداد يوماً لبعض شأنه ، فأمر عبد الله أن يلحق به ، وقال له : الزما بغداد ، ولايخرج أحد منكما إلى « فإنما أنتم آفتى ... والله لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أخرجت منكم واحداً معى ... لولا مكانكم منى لمن كانت توضع هذه الفرش ؟ ولمن كانت توضع هذه المائدة ؟ »

وخلت الدار على أحمد بعد سفر ولديه ، وشملها سكون ووحشة ، وطويت الفرش على ما صدق ظنه ، وانقطع مجىء المائدة ، وقل الوارد من الزوار ؛ وأمعن الشيخ فى خلوته ، وصيامه وعبادته ؛ وأمعن فيه الضعف والهزال ، وساءت صحته . . . ولم يعد للقوم مأرب من مقامه بينهم على هذه الحال ... وهو ما كان يريد . . . سأل عنه الخليفة يوماً فقيل له : إنه عليل .. فقال : « قد كنت أحب أن يكون فى قربى .. وقد أذنت له »

وجاءه البشير بذلك فى جوف الليل : قد أذن لك الخليفة . . وهذه ألف دينار لنفقتك ، ونحن بسبيل تهيئة حراقة لك تنحدر بها فى دجلة إلى بغداد .

وانقضت بذلك محنة أحمد بسر من رأى ، وانكشف عنه ما كان يجد من الكرب والفتنة ؛ وقال للرسول : أما المال ، فلا حاجة لى به ، « وقد أعفانى أمير المؤمنين مما أكره » . وأما الحراقة فيغنى عنها دابة من دواب البريد ، وهى أرفق بى وأيسر ...

* * *

كانت محنة الجور من السلطان أرفق بأحمد من محنة إقباله عليه بالجاه والعطاء والمال ! .

كان يريد أن يسلم له دينه ويقينه ، أو يسلم له قلبه ووجدانه ؛ ولا آفة للإيمان إلا حب الدنيا ، ولا آفة للقلب إلا الركون إلى زينتها ... فإذا فسد الإيمان ، وهلك القلب ، فأى شيء يكون المرء عند الله جل ثناؤه ؟ ...

وقد يعظ الناس بعضهم بعضا بمثل هذا الكلام ، فيكون وعظهم من قبيل التقرير لأمور نظرية ، ويكون تقبلهم له من قبيل الارتياح إلى الكلام الحسن الذى لايكلفهم قليلا ولا كثيراً من مشقة الصبر أو خشونة المجاهدة ... أما أحمد رضى الله عنه فقد أبصر تلك الحقائق رأى اليقين والبصيرة ، فشمر لها على حذر ، وتجرد لها على خشية من الله ، ورغبة صادقة فى السلامة والأمن ...

لقد نشأ له فى خفايا نفسه عينان لا كالعيون ، تبصران له ما فى عالم المعانى من الحقائق والقيم ... فكان يمسى ويصبح ، ويغدو ويروح ومعالم هذا الأفق الخفى ساطعة فى نفسه . شاخصة لوجدانه ، فهى بالنسبة له أمر واقع ؛ وشىء حاضر قائم لاسبيل إلى تجاهله أو الانصراف عن خطورة شأنه ... فتلك الدنيا المقبلة عليه بجاهها ومالها وكل زينتها ، لايراها كما يراها سائر الناس ... إن حلاوتها فى القلب هى سمه الزعاف القاتل ... وإن ريحها اللينة المقبلة بالنعيم فى رأى الناس إن هى إلا لإعصار المحرق الذى يأتى على ما أنشأ الإيمان فى رياض النفوس .

كان أحمد يرى كل ذلك رأى اليقين والبصيرة .. فهل يرفع الكأس إلى شفتيه وهو يعلم أنه السم الزعاف ؟ ... وهل يستقبل الإعصار فى طمأنينة ، وهو يرى ألسنة الحريق واللهب تمتد إليه لتطويه فى ثناياها ؟

ذلك هو وجدان أحمد ، وتلك هى حقيقته التى كان يعيش فيها بين الناس ... يرى مالايرون ، ويدرك مالايدركون ! ! .

وكان شديد الحرص ، أن يجنب أبناءه مايجنب نفسه من آفة الدنيا ، وأن يحميهم مما حمى نفسه منه . وفيه خيرهم الحق ، ونجاتهم من كل شر ، ولكن هل يبلغ صوته آذانهم ، وهل يعون عنه سمو الهدف الذى يريد ؟

لقد عاد إلى بغداد ، واستقر بين بنيه وأهله ، فأقبل على ابنه صالح يقول له : يا بنى « أحب أن ندع هذا الرزق الذى نأخذ من الخليفة ، فقد علمت أنكم إنما تأخذونه بسببى » . .

قال صالح : فسكتُ .

قال أحمد : مالك لا ترد ؟

قال صالح : أكره أن أعطيك شيئاً بلساني ، وأخالف إلى غيره . . . . وقد كنت أشكو إليك فاقتى وكثرة عيالى ؛ وكنت تدعو لى ؛ فأرجو أن يكون الله قد استجاب لك .

قال : ولا تفعل ما أقول لك ؟

قال صالح : لا . .

فغضب أحمد ، وطرده من مجلسه ، وأقام جداراً يسد ما بينه وبين بيته

قال صالح : وكان إذا بلغه أنا قبضنا شيئاً اغتم وطوى ليلته فلم يفطر . . . وظللت أشهراً لا أدخل عليه فوجهت إليه : يا أبت قد طال هذا الأمر على ، وقد اشتقت إليك . . فسكت ... قال فدخلت إليه وأكببت عليه ، وقلت له : يا أبت تدخل على نفسك هذا الغم ؟ فقال يا بنى ، يأتينى مالا أملكه !! . . وتكلم عبد الله بن محمد المعروف ببوران ، وقال : يا أبا عبد الله ، صالح يرضيك لله . . .

فقال : يا أبا محمد ، والله لقد كان أعز الخلق على . . . وأى شىء أردت له ؟ . . . ما أردت له إلا ما أردت لنفسى !

فقال صالح : يا أبت ، ومن من خلق الله الذين رأيتهم أو لقيتهم يقوى على ما قويت أنت عليه ؟

فغضب أحمد وقال : وتحتج على ! ؟

وانقطع الراتب شهوراً عشرة ، عن كل شهر أربعة آلاف ، وارتاح أحمد بعض الشيء .. ولكن الخليفة يعلم بذلك فيأمر بالأربعين ألفاً أن تحمل للفور إلى ولد أحمد فلما جاءت أرسل إليه صالح ينبئه ، فسكت قليلا . . وجعل يضرب بذقنه ساعة . . . ثم رفع رأسه ، وقال : « ما حيلتى إذا أردت أمراً ، وأراد الله أمراً ؟ » .

***

وقدم المتوكل فنزل بظاهر بغداد فى طريقه إلى المدائن ، فهل خف أحمد إلى لقائه وتحيته مع من خف من الأعيان والكبار والشيوخ ؟

لقد عرفنا مذهبه . . فهو يريد أن لا يرى أحداً من أرباب الجاه والسلطان ؛ وأن لا يراه أحد منهم . . !

لم يخف إلى لقاء الخليفة . . بل لم يحدث نفسه به . . . بل ذهب إلى ما هو أكثر من ذلك . . . قال لابنه صالح : يا بنى ، لا تذهب اليوم ، حتى لا يراك أحد منهم فيذكرنى بك

ولـكن الخليفة ينظر فى وجوه الأعيان ، فيرى كل وجه لا يريده . . . ولا يرى الوجه الذى يحب أن يراه !

وكان صالح جالساً بظاهر الدار على باب الزقاق ، فى اليوم التالى ، وكان يوم مطر . . . قال : وإذا يحيى بن خاقان قد جاء والمطر عليه فى موكب عظيم ، فلما رآنى قال : سبحان الله ! لم تصل إلينا حتى تبلغ أمير المؤمنين السلام عن شيخك حتى وجه بى إليه . . .

ونزل خارج الزقاق . وجهد عليه صالح أن يدخل على الدابة ، فلم يفعل ، وجعل يخوض المطر . . . ودخل على أحمد وهو قاعد فى زاوية من البيت عليه كساء مربع . . فسلم عليه ، وقبل جبهته ، وسأله عن حاله ، وقال : أمير المؤمنين يقرئك السلام ؛ . ويقول : كيف أنت فى نفسك ، وكيف حالك ؟ ويسألك أن تدعو له . .

قال أحمد : ما يأتى على يوم إلا وأنا أدعو الله له . .

قال يحيى : وقد وجه معى ألف دينار تفرقها على أهل الحاجة . .

قال أحمد : يا أبا زكريا ، أنا فى البيت منقطع من الناس ، وقد أعفانى من كل ما أكرهه !

قال يحيى : يا أبا عبد الله ، الخلفاء لا يحتملون هذا ! !

قال أحمد : يا أبا زكريا ، تلطف فى ذلك . . ودعا له . .

***

تلك هى عزة الدين . . . وذلك هو الملك الحق !

أشرف أحمد على النهاية ، وأشرف معها على الغاية ؛ وأخذت أيامه الأخيرة تدنو به رويداً رويداً إلى باب الخلود .

أطال الصوم . . وأدام الصلاة ، لا يصلى إلا قائماً ، يمسكه ولده إذا قام ، ويسنده إذا ركع أو سجد . . . واجتمعت عليه أوجاع الحصر .

قال ابنه صالح أما عقله فلم يزل ثابتاً صافياً .

وذاع فى بغداد أن صدّيق العصر يوشك أن ينتقل إلى جوار الله .

وفزع الناس : يهوديهم ، ومجوسيهم ، ومسلمهم ، ونصرانيهم ، فقد كان أحمد ملكا للانسانية بأسرها ، ورحمة لـكافة من أظله لواء الإسلام أو ذمته .

وأرهفت الأسماع ووجفت القلوب ؛ حتى إذا مضت ساعتان من يوم الجمعة الثانى عشر من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين نعاه الناعى ! !

ووقف دولاب الحياة فى بغداد بأسرها عن كل حركة ، وفرغت المدينة العظيمة ليوم إمامها الجليل . والكل ما بين حزين مكتئب ؛ وباك منتحب . . . حتى أسدلوا عليه ستار التراب فى جدثه المنور ...

ونظر رجال الملك من زاويتهم يقدرون منها موت أحمد .

ونظر رجال الاجتماع .

ونظر رجال الحقيقة .

أما رجال الملك ، فقد بعث الخليفة عشرين حازراً يحزرون له عدد من يصلى على أحمد من الناس صلاة الجنازة ، فقد كان له فيهم ملك وسلطان من وراء ملك الخليفة وسلطانه . فعاد الحازرون يذكرون له مليونا وثلاثمائة ألف نسمة ، عدا الذين لم يتمكنوا من الصلاة ! !

أما رجال الاجتماع فقد لخصوا أثره بقول الدركانى : وقع المأتم والنوح يوم مات أحمد بن حنبل فى أربعة أصناف من الناس : المسلمين ، واليهود ، والنصارى ، والمجوس !

أما أهل الحقيقة ، فيقفون طويلا على ما كان منه فى لحظاته الأخيرة ، وقد جاءت سكرة الموت بالحق ، وكشف عنه غطاؤه ، فيرى بعينى بصره وبصيرته ما كان مستوراً عنه من الحقائق . . . ويرى إبليس وقد وقف فى ركن من الحجرة يعض على أنامله من الغيظ ... ويسمعه يقول : لقد أجهدتنى يا أحمد أكثر من ستين عاما ، وها أنت ذا تفلت منى اليوم ، وتفوتنى دون أن أنال منالا ! فيقول له أحمد : لا . . إنى لم أفتك بعد ، ولم أفلت منك ؛ فما يزال فى الصدر أنفاس تتردد ، وما يزال فى البدن خفقة من حياة ، وما يزال لكيدك فيها متسع !

قال ابنه عبد الله فقلت : يا أبت إيش هذا الذى قد لهجت به ؟ فقال لى : يا بنى ، ما تدرى ؟

فقلت : لا ! .

فقال إبليس لعنه الله ، قام بحذائى ، عاضا على أنامله ، يقول : يا أحمد فتنى !

فقلت له : لا بعد ، حتى أموت !

وتعاقبت الأنفاس التى تتردد فى صدره تخرج واحداً فى إثر الآخر حتى لفظ آخرها . . . وانطفأت خفقة الحياة التى كانت باقية فى بدنه .

وأطبق فمه !

وأغمض عينيه إلى الأبد !

مدّ الإسلام وجزره

للشاعر الأوردى الأستاذ ألطاف حسين حالى

ترجمها إلى العربية بشىء من التصرف القاضى محمد محمود الزبيرى

شاعر اليمن

(٢)

هو الشعب لاه ليس يترك لهوه … قناعته بالدون تنسيه شأوه

كفى أنه مازال يحلم حلمه … ويشدو بأنغام السيادة شدوه

تمرغ فى الأوحال عجزاً وذلة … وما زال غِرًّا لا يفارق زهوه

تجلى عليه الصبح لكن ظلمة الـ … ـسبات تراها لا تغادر جوّه

فما شال رِجلاً كى يمارس خطوه … ولا هزّ جفنًا كى يجرب صحوه

قنوع فلا تأسى على الذل نفسه … صبور فلا يشجى من الخسف شجوه

يعذبه الباغى ويقصم ظهره … فيحبوه دنياه ويعطيه عفوه

تطورت الدنيا وطارت بأهلها … وما انفك يحبو أو يمجد حبوه

* * *

يقدم للسكين كالكبش نحره … ويصبر للتقطيع والسلخ صبره

ويحيا كما تحيا البهائم عمره … ويحمد دنياه ويشكر دهره

ويرضى إذا ما استعمر البغى قطره … ولو سامه خسفاً وألهب ظهره

فكل هوان ليس يوقد جمره … وكل فخار ليس يوقظ كبره

وما رغبة الجنات تشرح صدره … ولا رهبة النيران تجلب ذعره

* * *

أساء إلى الإسلام مذ حمل اسمه … وعطل معناه وأبطل فهمه

وشوّه منه وهو يظهر حبه … بما لم يشوه منه لو كان خصمه

تظاهر فى أثوابه ولو انه … بدا عارياً ما كان يأثم إثمه

فما ترك الأثواب بيضاً ولا زوى … معايبه السوءى ولا زان جسمه

يحاول تضليلا فيفضح نفسه … وينسج أثواباً فيكشف جرمه

يرائى نفاقاً وهو يدرى بأنه … كذوب وأن الناس تضمر شتمه

فياليت شعرى من يغالط فى الورى … ومن ذا يراعى حين يزعم زعمه

* * *

ومن عجب كيف استطاع إساءة … إلى سمعة الإسلام واجتث فضله

وشكك فيه الناس إذ كان ظلّه … على زعمهم والظل يشبه أصله

معاذك يا رباه ! فالبون شاسع … ودينك ما فى الأرض أمثله له

لو انتسبت شمس النهار بهديها … إلى هديه القدسى لم تك مثله

ولا أحسنت فى أن تسد مسده … ولا نجحت فى أن تحل محله

وليست بأهل أن تكون سلالة … لتاريخه أو أن تمثل أهله

فنور الضحى يستهدف الأرض وحدها … وروح الهدى يستهدف الكون كله

* * *

ذكاء تربى الشر والخير فى الورى … ودين السماء يصنع الخير وحده

به صارت الأعداء من قبل إخوة … تهيم بعلياه وتعشق مجده

وتحيا نشاوى فى فراديس وحيه … تعلّ حميّاه وتنهل شهده

تسود به فوق الحياة وأهلها … وتنشر رياه وتكتب عهده

تطوّل عمر الشعب حتى كأنما … تذود مناياه وتغلق لحده

غذت روحه سحراً فغادر مهده … بساعاته الأولى وأدرك رشده

أحالت تراب الأرض تبراً وصيرت … به كل فرد عنه يضمر زهده

شاطئ التوبة

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

وَمَا شَاطِئٌ في يَدَيْهِ كَفَّارَةٌ لِلْخَطَايَا
ذَهَبْتُ يوماً إليهِ بأدمُعِي وشَقَايَا
وبالمعَاصِي اللَّواتي دَفَنْتُهَا في حَشَايَا
ورُحْتُ أُلْقِي عَلَيْهَا تَبَتُّلِي وهُدَايَا
فَصِرْتُ قبراً قديماً تناهشَته المنَايا
زَفُّوا عليه غُصوناً مُنَضَّراتٍ صَبَايا
وحَمَّلُوهُ طُيورًا حَمَّلتُهَا مِنْ غِنَايا
وصِرْتُ بعضَ صَلاةٍ تضم بعضَ الخطايا
وتَوْبَةً في خُطَاها تمشي الذنُوبُ عَرَايَا
كأنَّها مِنْ خَفَاءٍ للإثم صارتْ مَطَايا
أَوْ أنَّها مِنْ رياءٍ أضحتْ لَديه مرَايا . .
ذهبتُ يوماً . . ونفسي جريحة ، تتعَايَا
والمَعَاصِي عُواءٌ مُدَمْدِمٌ في الحَنَايا
كأنَّه صوتُ ذِئبٍ تغافَلَتْه العَشَايا
أَوْ فَحُّ أفعى شَوَتْها من الهَجِير شَظَايا
أَوْ نَوْحُ ثَكْلَى أهاجَتْ لها القبورُ خفَايا . .
أَوْ وخزةٌ مِن ضميرٍ للعار فيه بقَايا

أَوْ صرخَةٌ من يَتيمٍ تلقفتْـــه الرَّزايا . .
حَمَلْتُهـــا . . وكأنِّي حملتُ هـــول الْمَنـايا
وجئتُ نَدْمَانَ أُزْجِي إلى المتـــاب خُطـايا
أبكي ، وتبكي ، ويَبْكي دمعي ، . . ويبكي بُكَايا
وفي يديَّ غنـــاء مُوَلْوِلٌ مِن أَسَـــايا
وبي دُعاء خَـــفِيٌّ مُزَمْزِمٌ في دُجَـــايا
كأنه صـــوتُ رُؤْيا سَجينةٍ في الخفـــايا
أَوْ حُزْنُ طيرٍ غريبٍ في الليـــل ينفُخُ نايا
أَوْ مُسْـتَجيرٍ ، تُلَـبِّي صَداهُ ، نَفْس الرَّزايا . .
يَقُولُ : يا ربِّ ! هـذا إِثْمِي ! وهـذا تقَايا !
وذاكَ دَرْبِي ، وهٰذِي عَلَى الطريق عَصـــايا
ما كنتُ أعْمَى ! . ولكِنْ أعْمَى المغَنِّي شَـجايا
دَقَّ الدفوفَ ، فطـارتْ أرضي له وسَمـــايا
وطرتُ عَبْدًا . . أُنادِي في سِـخْرِهِ مُنْتهايا . .
ربَّاهُ إِنِّي غَرِيبٌ مُضَيَّعٌ في حِمايا
لَمْ أَدْرِ يَأْسِيَ فيـهِ ولا عرفتُ رَجَـايا
وَلَا عَرَفْتُ ذُنُوبي ولا عَرَفْتُ هُـدايا
ولا عرفتُ ظَـلامي ولا عرفتُ ضُـحايا
إليكَ أنْتَ . . صَباحي مُصَـــفَّدٌ وَمَسَـايا
عَبْدانِ في الذُّلِّ تاها وتَهْتَهَا بالخطـــايا
فاسْـكُبْ ضِياءكَ إِنِّي ظمآنُ . . ضَلَّ صَدايا
لم يَدْر مِنْ أيِّ نَبْعٍ يَسْـقي حَنـين الرَّكايا

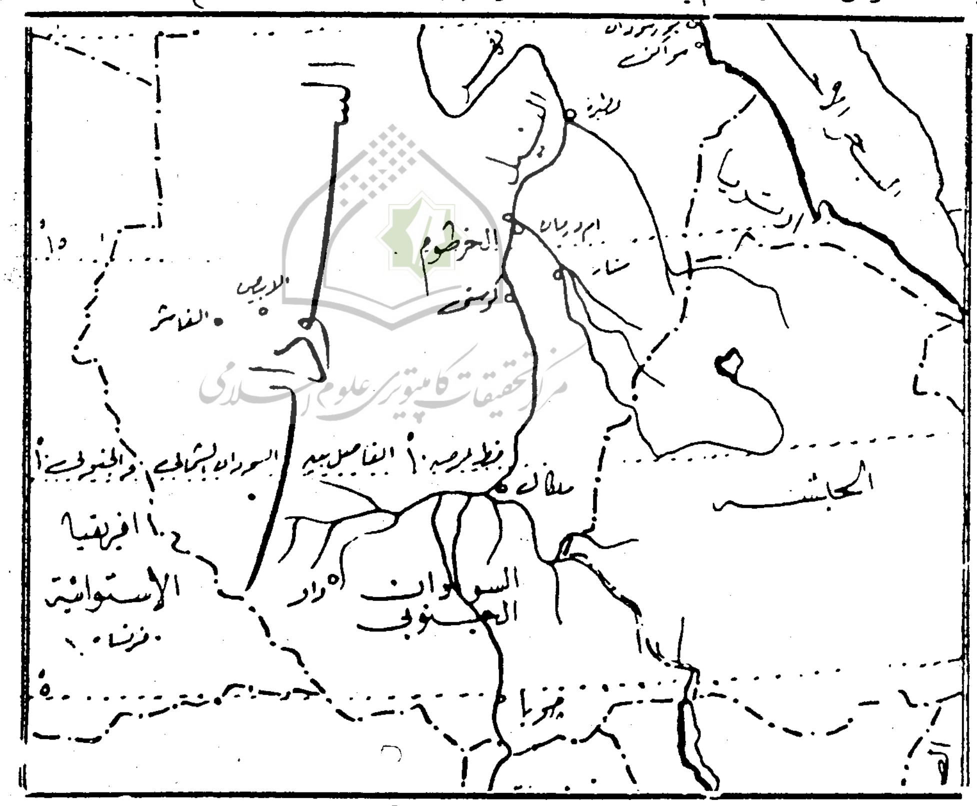
السودان المسلم

للأستاذ محمد الخير عبد القادر

(٤)

السودان الجنوبي :

وقصة السودان الجنوبي هي قصة الاستعمار في أبشع صوره . فما أن توطدت أقدام الاستعمار في السودان الشمالي حتى ضرب الإنجليز نطاقاً حديدياً حول السودان الجنوبي وهو المنطقة التي تقع جنوب خط عرض ١٠ وتتاخم يوغندة والكنغو البلجيكية في الجنوب ويبلغ عدد سكان السودان



الجنوبي المليونين لنسمة وأغلبيتهم من الزنوج الذين لم تبلغهم رسالة الإسلام ولم يتسرب إليهم الدم العربي واللغة العربية ولعل هذه العوامل هي التي شجعت دولة الحكم الثنائي على المضي في تنفيذ سياستها الخاصة بفصل السودان الشمالي عن السودان الجنوبي . فهؤلاء الجنوبيون ما زالوا يعيشون معيشة بدائية يقتاتون بثمار الأشجار ويلبسون أوراقها أو يسيرون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ويتحدثون لغاتهم المحلية ويسكنون الأكواخ المتواضعة ويعيشون على الصيد وتربية المواشي في بعض المناطق وهم وثنيون لم ينتشر الإسلام بينهم لأن منطقتهم ظلت مقفلة نصف قرن في وجه إخوانهم الشماليين المسلمين فلا يستطيع السوداني المسلم أن ينتقل من السودن الشمالي الى السودان الجنوبي إلا بترخيص من السلطات الحاكمة يحصل عليه بعد أن يتعهد بعدم مزاولة أي نشاط تبشيري يقصد

منه نشر الإسلام فى الجنوب بل ويحظر عليه أن يؤدى شعائره الإسلامية على مرأى من أهل الجنوب الوثنيين . ولذلك كان أثر السودانيين الشماليين ضعيفاً فى الجنوب الذى استأثرت به الحكومة الإنجليزية وأطلقت العنان لمفتشيها الإنجليز فى إدارة المديريات الجنوبية كما أطلقت يد الإرساليات التبشيرية المسيحية فى بناء الكنائس والمدارس التبشيرية التى تلقن أبناء الجنوب الأبرياء اللغة الإنجليزية ومبادئ الدين المسيحى . أما اللغة العربية فلم يسمح بإدخالها فى مدارس الجنوب إلا بعد عام ١٩٤٦ . ويقوم نظام الإدارة فى الجنوب على المفتشين الإنجليز المتغطرسين ويأتمر بأمرهم الزعماء ورؤساء القبائل السذج من الجنوبيين . والمفتش فى الجنوب هو الحاكم الإدارى وهو الذى يتولى القضاء وتخول له سلطات غير محدودة وتقوم إلى جانبه محاكم رؤساء العشائر التى تحكم بناء على قانون عرفى يستند إلى العادات البالية . ومنذ عام سنة ١٩٢٤ ألغيت جميع المحاكم الشرعية التى كانت فى الجنوب وكانت تبلغ العشرة عداً .

أما الإرساليات التبشيرية فتمثل كثيراً من الجنسيات والمذاهب المسيحية فمنها الكاثوليكية والبروتستانتية والإنجليزية والأمريكية وغيرها . وقد تغلغلت هذه الإرساليات فى القرى والأدغال وتمدها حكومة السودان بالمعونة المالية والفنية . وقد ترك أمر التعليم فى الجنوب للارساليات لتربى أبناء الجنوبيين التربية التى تتفق وأهداف الاستعمار ، فتربيهم على الديانة المسيحية واللغة الإنجليزية وكراهية السودانيين الشماليين ويقترن بهذه التربية تنفير الأطفال الجنوبيين من إخوانهم الشماليين ويلقون فى روع الجنوبيين أن السودانيين الشماليين ليسوا سوى تجار للرقيق يرقبون الفرصة فى كل حين للفتك بالجنوبيين لولا حماية الإنجليز لهم ! والغريب أن حكومة السودان تمد الإرساليات التبشيرية فى الجنوب بالمال الذى يقتطع من دافع الضرائب المسلم فى السودان الشمالى .

وتحت ضغط الرأى العام الشمالى اضطرت الحكومة إلى إباحة الاتصال بالسودان الجنوبى وسمحت بتأسيس مدرسة ابتدائية تخضع لوزارة المعارف السودانية فأنشئت مدرسة عطار بالقرب من ملكال كما أنشئت مدرسة ثانوية صغرى فى توريت على غرار المدارس الثانوية فى السودان الشمالى وعلى الرغم من أن الإرساليات التبشيرية المسيحية انفردت بالسودان الجنوبى مايقرب من نصف قرن فإنها فشلت فى تحويل الجنوبيين إلى المسيحية وإن كانت قد نجحت فى إيغار صدور بعضهم على إخوانهم المسلمين فى السودان الشمالى وإن نسبة الذين اعتنقوا المسيحية من أهل الجنوب لاتزيد على ١٪ .

هذا وقد سمحت السلطات أيضاً بالتبشير الإسلامى فى الجنوب وفى منطقة جبال النوبة فى جنوبى مديرية كردفان وقد اعتنق الإسلام فى الشهور القليلة الماضية نحو سبعة آلاف من النوبة الوثنيين فى جنوبى مديرية كردفان . ولعل فى هذه النتيجة مايبشر بمستقبل باهر للتبشير الإسلامى فى السودان الجنوبى إذا ما اضطلعت بهذه المهمة الخطيرة هيئة إسلامية لها من الإمكانيات المادية والفنية والعلمية ما يؤهلها لأداء رسالتها السامية .

وإن الباحث ليتساءل عن البواعث التى تحدو بحكومة السودان الإنجليزية إلى انتهاج سياسة فصل السودان الجنوبى عن السودان الشمالى فلا يجد إجابة على هذا التساؤل غير أن السودان الجنوبى هو أغنى أجزاء السودان فى الثروة النباتية التى تتمثل فى أخشاب التيك والماهوجن والفواكه المدارية بأنواعها المختلفة ولعل هناك ثروات معدنية لم يكشف عنها بعد . يضاف إلى ذلك اعتدال المناخ بسبب غزارة الأمطار وطول فترة هطولها مما يلائم السادة الإنجليز . ولعل أملا عذبا يداعب الانجليز فى إمكان ضم السودان الجنوبى إلى يوغندا ومستعمرات أفريقيا الوسطى لتكوين امبراطورية بريطانية جديدة غنية بثرواتها ومواردها التى لم تستثمر بعد !

« انتهى البحث »

فى أفق العالم الإسلامى

جلاء الإنجليز :

قلنا فى العدد الأول من السنة الأولى من « المسلمون » ديسمبر سنة ١٩٥١ ، وكان ذلك حين ألغت الحكومة المصرية معاهدة ١٩٣٦ واتفاقية ١٨٩٩ :

« ... وأخيراً أقدمت الحكومة المصرية على إلغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقية ١٨٩٩ ، وهى خطوة وإن جاءت متأخرة إلا أنها اتجاه سليم فى علاج قضية وادى النيل على أن يكون معروفا أن هذا الإلغاء بدء واستفتاح ، وأن وراءه تبعات ثقيلة وجهاداً مضنيا ، فإن الإنجليز مقبلون على حرب يعدون عدتها ، ولن يخرجهم من مصر والسودان ورقة مكتوبة ولاخطبة بليغة فإنهم أعرف بمصالحهم وأعلم بما وراء الكتب والخطب ، واليوم الذى يغادرون فيه هذه البلاد هو اليوم الذى يشمون فيه رائحة الجد . ويتحققون من أن بقاءهم لن يفيد شيئاً مما يدبرون ، ولايعدل الثمن الذى سيدفعون ، فإن القاعدة العسكرية شرطها الأمن والاستقرار ، والسلامة من الرسميين الأهليين على السواء ، ولهذا فإن قيمة خطوة الحكومة المصرية بإلغاء المعاهدة محدودة بخطواتها بعد ذلك وبالعدة التى أعدتها للأمر وتطوراته » .

ثم قلنا فى العدد الرابع من السنة الأولى : مارس سنة ١٩٥٢ :

« ... أما كلمتنا الثانية إلى شعب وادى النيل فهى : أن يعد نفسه لجهاد طويل ، وأن يدرك المجاهدون منه أن أخطر مايعانيه الميدان هو خلوه من القاعدة الثابتة والخطة الواضحة ، وأنه مالم يفهم العاملون : أين هم ، ومن معهم ، وماذا أمامهم أو وراءهم ، ويواجهوا الموقف بجرأة قد تؤلم ، وصبر قد يطول ، فإن الواقع سيرد عليهم رداً قاسيا . إن الأزمة أزمة أخلاق فى الصغير والكبير . والإنجليز ذوو فن عتيق فى اكتشاف ذوى الاستعداد للامراض الشتى ... فالحاجة السياسية الآن هى حاجتنا إلى جيل يستعصى على المرض والعدوى . وإعداده والسهر عليه هو العمل السياسى المستقيم » .

ثم نقلنا فى العدد الخامس : أبريل ١٩٥٢ فقرة أعجبتنا من رسالة بعث بها فضيلة الأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للاخوان المسلمين إلى رئيس وزراء مصر جاء فيها :

« أما الموقف الخارجى فمن البداهة بمكان أن الإنجليز لايستجيبون لآمالنا الوطنية ولايفكرون فى الجلاء لابقدر ماتصيب أقدامهم من زلزلة واضطراب وما يتعرض له استقرارهم ومصالحهم المادية والاستراتيجية من خلل وإقلاق ، فتقبلها منا يا صاحب الدولة (حينذاك) نصيحة خالصة لم نتكل عن أدائها لكل من استنصحنا ممن حملوا هذه الأمانة قبلك . إن الكفاح وحده هو سبيل الجلاء والوحدة . الكفاح الذى ينتظم الحاكم والمحكوم ويتلاقى تحت ألويته الكبير والصغير ، ويبدو فيه العزم والإصرار على تحقيق الأهداف ، وتؤخذ الأهبة لاستمراره وشموله بحشد الكفايات العلمية والاقتصادية والسياسية والحربية والأخلاقية فوق ذلك لتنظيم المقاطعة ودوام المناجزة بمايزلزل الأرض تحت أقدام الغاصبين ويجعل أمامهم فى الوادى خسارة يفرون منها ومغرما لايستطيعون الصبر عليه ... »

هذا ماقلناه ورددناه فى تناولنا لقضية مصر ومتابعتنا لأحداثها ، ولقلة يقيننا عن كل حديث جديد لا يسعنا إلا أن نبدى ارتياحنا لموقف الحكومة المصرية الأخير فى إصرارها على الحق ورفضها المساومة ومضيعة الوقت ، وإلا الضراعة إلى الله أن يلهمها الرشد ويأخذ بيدها فى هذه المفازة الوعرة ، وإلا التذكير بأن سلامة الصفوف فى الداخل وتركيز الجهد الأكبر فى إقرار حياة البلاد الإجتماعية والاقتصادية على أساس سليم هما الأسلوب العملى الذى يؤتى الكفاح معه ثمرته ويبلغ مداه .

زيارة دالاس :

يزور مصر هذه الأيام مستر جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكية ، وقد قامت صحافة العالم العربى وقعدت لهذه الزيارة ، وتكهنت بأهدافها وما وراءها ، ونحن لا نذهب معها ولانرى رأيها ، وقد كنا نستطيع أن نلتزم ظاهر الحكمة فنعرض على مستر دالاس حقوقنا بأسلوب هادئ حكيم ، ولكننا نؤثر الشك وسوء الظن ونرى ذلك عين الحكمة ، وواجب العرب والمسلمين . نرى ذلك لأمرين : أولهما أن دالاس قد درس قبل رحلته عن حقوق العرب من سفرائهم فى وشنطن ما كان يكفى لتعبر به سياسة أمريكا على الأقل فى قضيتى تونس وفلسطين ، ولن تزيد معلوماته فى ذلك إلا بقدر زيادتها من بن غوريون فى مقابلتهما المزمعة فى القدس !

والأمر الثانى أنه أصبح من العبث أن تدعونا أمريكا أو انجلترا أو روسيا إلى تحديد علاقاتنا فى نور المثل الأعلى فإن حضارة هؤلاء جميعاً هى حضارة الشهوات العارمة على حساب كل خلق كريم . إن تحديد علاقاتنا هو تحديد مصالحنا ومصالحهم ... وهم يعرفون مصالحهم ، غير المشروع منها قبل المشروع ، فهل نعرف نحن مصالحنا ؟ ذلك مانشك فيه ، وذلك وحده هو مايجب التفكير فيه ، ومايجب التفكير منه مجردا من كل اعتبار آخر غير المصلحة ، مع الشك اللازم فى سوء النية المحتمل من أمريكا ، وليس من حق دالاس أن يطالعنا بغير ذلك ، فتاريخ بلده لا يشهد له ، وعليه هو بالعمل لا الوعود التى كفرنا بهـا ، أن يثبت التغيير المزعوم فى نية بلاده نحو العرب والمسلمين .

بقى أن نذكر أموراً محددة واضحة للتذكرة .

(١) لاصلح مع إسرائيل وكل اتجاه فى سبيل ذلك سيرتد إلى صدور أصحابه وبالا ودماراً من الأمة التى بدأت تعى وتفهم !

(٢) مكافحة الشرور الاجتماعية التى يهتم بها دالاس فى بلادنا — كما يقول هو ! أى الشيوعية لاتكون بالوعود الفارغة ، ولابخمس إسلام أو ربع إسلام ، فإن ذلك تخدير لم يعد يغنى شيئاً ، وكذب على الناس لم يعد يجوز عليهم ، وعلى أمريكا وانجلترا أن ترافعا أيديهما عن الحركات الإسلامية الواعية التى أصبح لايفيد اضطهادها أو الدس عليها فى الظلام .

(٣) ليس من حق ساسة العرب أن يزجوا بأمتهم فى حرب لاناقة لها فيها ولا جمل . وكل محاولة لتوريطها يجب أن تفشل ، وهى فيها — إن نجحت — مغلوبة على أمرها ولايفيد الضغط شيئاً فى سلامة القواعد العسكرية فى الحروب ! ! ولمستر دالاس مع ذلك تحياتنا

فى أندونيسيا :

فوجئنا بنبأ وفاة السيد عبد الواحد هاشم رئيس حزب نهضة العلماء بأندونيسيا أثر حادث أليم . تغمده الله بواسع رحمته وعوض المسلمين عنه خير العوض .

أخبار متفرقة

أرسل فضيلة الأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للاخوان المسلمين البرقية التالية إلى اللواء الرئيس محمد نجيب : « موقف عظيم نؤيدكم فيه فالأمة كلها لن تتخلى عن شيء من حقوقها وهي ماضية في سبيل استقلالها فسيروا في هذا السبيل والله معنا وهو ولي التوفيق » .

● أذاعت الحكومة السويسرية بياناً رسمياً جاء فيه أن البوليس اكتشف في شهر فبراير شبكة للجاسوسية تعمل لحساب إسرائيل ضد مصر والدول العربية ، وأنه قد أطلق سراح الأشخاص الأربعة الذين قبض عليهم في ذلك الوقت لأن المتهمين الرئيسيين كانو قد غادروا البلاد ! .

● أقامت (الجالية البريطانية) في بغداد صلاة خاصة في كنيسة القديس جورج بمناسبة تتويج الملك فيصل الثاني ، وأوفد الوصي على العرش مندوباً عنه كما حضرها كثير من المشايخ المسلمين وكان الذي يقوم بتلاوة آي الذكر الحكيم في الكنيسة السفير البريطاني في العراق .

● في نبأ من الباكستان من مصادر عليمة يفيد أن الباكستان ستنسحب قريباً من (الكومونولث) البريطاني وأول نتيجة لذلك هو عدم الاعتراف بالملكة اليزابيث ملكة بريطانيا رئيسة لدولة الباكستان ومن المتوقع أن يعلن هذا الانسحاب في الشهر القادم بعد عودة السيد محمد علي رئيس وزراء الباكستان من حفلات تتويج الملكة اليزابيث ، وقد اتخذت الباكستان قرارها هذا نظراً لشعور العداء الشديد نحو بريطانيا في الباكستان .

● دعا المؤتمر الإسلامي العالمي الذي عقد في (ميدان) بأندونيسيا إلى إنشاء مجموعة شعوب إسلامية (كومونولث) ليتسنى لأعضائه العمل في تعاون ضمن هيئة مرنة وتطبيق الشريعة الإسلامية بعد ما ظهر من اشتداد رغبة جميع الأقطار الإسلامية في تطبيق الشريعة على القوانين المعمول بها ... ومن بين القرارات التي اتخذها المؤتمر قرار يحتم وضع قوانين للرعوية المشتركة بين جميع المسلمين في العالم الإسلامي بحيث تتمكن الدول الإسلامية أيضاً من منح الرعوية للمسلمين المقيمين في أقطار غير إسلامية ...

● قال بيرل لوكر الرئيس المساعد للوكالة (اليهودية العالمية) عند وصوله إلى سيدني باستراليا : إن إسرائيل ترغب في زيادة عدد سكانها من مليون وسبعمائة ألف نسمة إلى أربعة ملايين على الأقل ثم قال : لقد حضرت لأطلب إلى اليهود أن لايبخلوا بما في جيوبهم على إسرائيل وأرغب أن يهاجر يهود استراليا إلى إسرائيل ...

● تقول برقية لروتر أن متحدثاً بلسان وزارة الخارجية البريطانية ذكر أن الأردن طلب إلى بريطانيا أن تستخدم نفوذها لمنع إسرائيل من شن هجمات على أراضيه وقد جاء في المذكرة الأردنية وصف لأحداث القدس التي وقعت أخيراً ويعتقد المراقبون الدبلوماسيون أن لندن لن ترسل رداً على هذه المذكرة قبل استشارة حكومتي الولايات المتحدة وفرنسا وذلك لاتفاق تم بين الدول الثلاث (فرنسا وأمريكا وانكلترا) على أنه في حالة وقوع نزاع بين البلدين تعمل بريطانيا والأردن معاً على تسوية النزاع (بالطرق السلمية !) وعلى ذلك قدمت بريطانيا (احتجاجاً) إلى اسرائيل على أحداث شهر يناير ...

● تم اجتماع بين كل من وزير الدولة البريطاني سلوين لويد والياهوايلات سفير اسرائيل في لندن وقد ذكرت الدوائر الدبلوماسية أن الاجتماع تركز في بحث المفاوضات المصرية البريطانية التي تدور بشأن مسألة قاعدة قناة السويس لأن إسرائيل كما يقول المراقبون تشعر بأن مصير الحامية البريطانية في قناة السويس أمر على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لسلامتها ! . .

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات هذا العدد

مطابع دار الكتاب العربي بمصر